دراسات في رسائل النور

قراءة في كتابات النورسي

رؤية جمالية

(الكلمات)

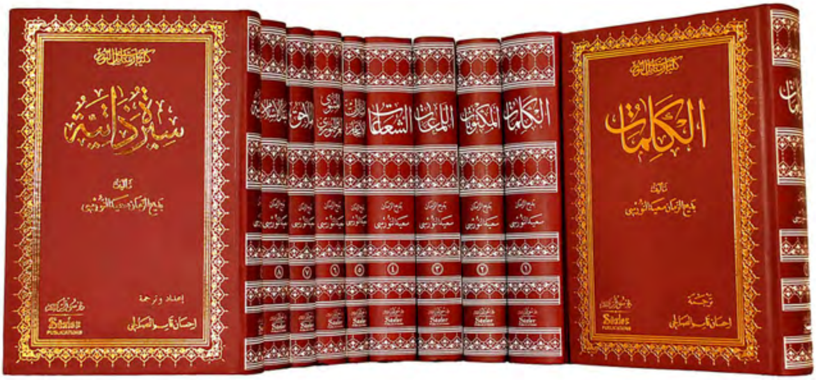

د. عماد الدين خليل

دار سوزلر للنشر
Sözler
PUBLICATIONS

قراءة في كتابات النورسي

رؤية جمالية

(الكلمات)

عنوان الكتاب :

رؤية جمالية (الكلمات)

تأليف :

د. عماد الدين خليل

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٧٠٨-٠١٠-١

رقم الإيداع : ٢٠١١ / ١٧٧٣٧

الطبعة: الأولى (٢٠١١)

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الناشر :

دار سوزلر للنشر

العنوان :

٣٠ شارع جعفر الصادق

الحي السابع- مدينة نصر- القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفاكس: ٢٢٦٠٢٩٣٨ (٢٠٢)+

TITLE :

RU`YAH JAMALIYYAH (AL KALIMAT)

AUTHOR:

D. IMAD AL DIN KHALIL

ISBN : 978-977-708-010-1

ARCHIVE NO: 2011 / 17737

EDITION: FIRST (2011)

ALL RIGHTS RESERVED

PUBLISHER :

SÖZLER PUBLICATIONS

ADDRESS :

30 Gafar El-Sadek St.

7th Nasr City Cairo

Egypt

Tel&Fax: +(202) 22602938

www.sozler.com.tr

e-mail: darsozler@gmail.com

دراسات في رسائل النور

قراءة في كتابات النورسي

رؤية جمالية

(الكلمات)

د. عماد الدين خليل

دار سوزلر للنشر
Sözler
PUBLICATIONS

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أتيح لي في خريف عام ١٩٩٢م أن "أجد" اسطنبول لأول مرة!!: كنت مدعواً للمشاركة في مؤتمر عن "النورسي" عقدته مؤسسة الثقافة والعلوم، حيث ألقيت بحثي: "الكلمات .. رؤية جمالية" وقد لقي - بفضل الله وحده ومنته - قبولاً حسناً.

كان البحث ينطوي على قسمين تناولت في أولهما التقنيات الجمالية في كتابات النورسي، وعالجت في ثانيهما رؤيته الجمالية للطبيعة والعالم والكون.

عندما عدت إلى بلدي كتبت انطباعاتي عن رحلتي تلك وبعثت بها إلى أخي الأستاذ إحسان قاسم الصالحي بعنوان: "الرحيل إلى اسطنبول"..

بعد أسابيع، لدى مروري بعمان، اتصل بي هاتفياً وفاجأني بقوله: "ماذا فعلت ؟"!

تملكتني الدهشة، وقبل أن أجيبه قال: "لقد أبكيت كل من قرأ المقال، أو استمع إليه"!

أجبته، وأنا أحمد الله في سري: أتدري لماذا؟ إنني وأنا أكتب انطباعاتي بكيت أكثر من مرة.. لقد كانت الكلمات تخرج من قلبي.

وما لبث المقال أن نشر في مجلة "النور" بنصه العربي وترجمته التركية.

عاد "إحسان" لكي يؤكد طلبه القديم: أن أواصل البحث في الرؤية الجمالية للنورسي، وأن استكمل فصوله المتبقية لكي يتولى إخراجها في كتاب.

أغراني العرض، رغم زحمة المشاغل التي تحاصرني بقسوة، ووعدته بالتنفيذ، ثم ما لبثت أن أزحت عني المطالب الملحة كافة وتفرغت لإنجاز الفصول التي يجدها القارئ الكريم بين يديه، والتي تتعامل مع المجلد الأول من الأعمال الكاملة للنورسي: "الكلمات".

إن "النورسي" يملك حضوراً عجيباً في عقل ووجدان كل الذين تعاملوا معه بالجد المطلوب، وبالصدق والإخلاص اللذين تنبض بهما رسائله وتتشكل أفكاره.

وتلامذته ومحبوه الذين التقيتهم في اسطنبول يملكون – هم الآخرون – في قلبي حضوراً يصعب الفكاك من أسره.. لقد غمروني بالمحبة بسخاء يفوق الوصف.. ولا أجدني، على كل ما قدمته من جهود متواضعة قد وفيت دينهم في عنقي..

ترى.. هل سيكون هذا الكتاب المتواضع كفاءً لهذا الدين ؟ أم أن "إحسان" سيطالبني بالمزيد؟

د. عماد الدين خليل

الموصل – العراق

الفصل الأول

الأسلوب والتقنيات

[١]

عبرت (الكلمات) من بدئها حتى منتهاها.. ساعات طويلة وأنا أعيش فكر (النورسي) وتدفق عطائه كالشلال.. بمرور الوقت بدأت أحس أنني أتجاوز حالة (القراءة من الخارج) وأنني اقترب منه شيئاً فشيئاً لكي ما ألبث أن أجلس قبالته تماماً، فأنصت لكلماته وأعيشها وهي تتشكل على يديه كلمة كلمة وحرفاً حرفاً.

في البدء كنت أتصور أن المنظور الجمالي (للكلمات) يتوزع هنا وهناك، في مقاطع وفقرات وفصول، كما هو شان مفكرين شتى، وانه - بالتالي - يمكن أن يكون مجزءاً وأنه - بشكل من الأشكال - يمكن فصله عن سياقه وفق المنهج الأكاديمي، لكي يعود المرء فيتعامل مع المادة الجمالية المنتزعة بعناية من فكر الرجل، فيدرسها ويوغل في دلالاتها، ويعيد تركيبها وفق نسق موضوعي يمنح الدارسين تصوراً أكثر مقاربة لمعطيات (النورسي) الجمالية.

يتبين لي أن هذا مستحيل، ذلك أن المعطى الجمالي (للكلمات) لا يكاد ينفصل عن دفقها الذي يبدأ من أول لحظة فلا يخفت نبضه حتى آخر كلمة فيه. ليس هذا فحسب، بل إن كل موضوعة من موضوعاته المتنوعة الخصبة، لا تكاد تبعد، أو تنفصل عن المسألة الجمالية في الشكل والمضمون، بل أنها تتلبسها وتتعاشق معها، بحيث أن محاولة فصلها عن السياق تغدو في المنظور المنهجي أمراً تعسفياً.

والبديل؟

أن يتحول المرء إلى صيغة عمل أخرى تحاذر مظنة الاقتطاع... تتجاوز أسلوب البحث عن (الشاهد) المتفرد، محيلة القارئ إلى حشود من الشواهد لكل حالة أو مسألة، وترحل في الكتاب، في ضوء سياقات الجمال أو تياراته الأساسية لكي تقول، أو تؤشر، أو تومئ - في الأقل - إلى ما أراد (النورسي) أن يقوله عن (الجمال) من أفقه الإيماني الرحب الذي يتجاوز المنظور إلى الغيب، والأرض إلى (السماء)، والدنيا إلى الآخرة، والذرة إلى الكتلة، والنبض إلى القانون، والسنة إلى الخارقة، وهندسة العقل إلى دفق الوجدان، والجماد إلى الحياة، والإنسان إلى النبات والحيوان والأنهار والشلالات والجبال، وكتاب السماوات والأرض إلى كلمات الله في قرآنه المبين.. إنه - باختصار لا اختصار بعده- يتعامل مع إبداعية الله سبحانه في الكون.. مع كلمة الله ذي الجلال والجمال، تلك التي تقول للشيء: كن، فيكون.

[٢]

بدء من صيغ الخطاب التي تعتمد (الكلمة) وتفجر قدراتها البلاغية، وانتهاءً بأبعد آفاق المعطى الجمالي متمثلاً بالتناسق الكوني: في بنية الكون نفسه وفي كتاب الله المعجز الذي يعكس بتكوينه اللغوي المدهش، حالة جمالية متفردة، بحثت وقرئت آلاف المرات، فلم تخلق على كثرة الرد .. وها هو ذا (النورسي) يجيء، في الموعد المضروب من عصر المادية الطاغي، لكي يضيف ما يهز الوجدان بصدد الإعجاز الجمالي للقرآن، والرسالة وكلمات الله التي ما لها من نفاد.. وابداعيته الباهرة في الكون والعالم والوجود والطبيعة والحياة والإنسان والأشياء والذرات والجزيئات.

على هذا فان البحث قد يطول فيتجاوز حدوده المناسبة للقاء: كهذا، فيغدو (كتاباً)، وقد يتحقق هذا في يوم من الأيام -بمشيئة الله وحده- لكي يشبع في النفس حاجة ملحة. أما الآن فان المطلوب صفحات لا تتجاوز العشرين أو الثلاثين، يتحتم أن تضغط فيها ملاحظات واستنتاجات تمس جل المفردات أو الموضوعات (الجمالية) التي تعاملت معها (الكلمات).

إن (النورسي) رحمه الله ينفذ تغطية (استاطيقية) دقيقة شاملة للمسألة الجمالية، بدءً من اللغة كصيغة للخطاب الإبداعي وانتهاء بالمضامين الجمالية الكبرى للإبداع الإلهي في الكون، مروراً بتدفق الخلق المدهش في السماء الدنيا، في العالم، في دنيا النبات والحيوان والطبيعة وفي الجمادات والذرات والأشياء .. دون أن يغفل لحظة عن حلقات التميز الجمالي الإسلامي وهو يتعامل مع الإنسان، والروح، وعالمي الغيب والشهادة .. وهو - في كل الموضوعات التي يعالجها - يتلقى إشارة البدء ومعالم الطريق من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم مخصصاً مساحات واسعة خصبة لما ينطوي عليه كتاب الله وشخصية رسوله المعلم - عليه أفضل الصلاة والسلام - من قيم جمالية لم يرق إليها ولن يرقى كائن أو كتاب!

ومنذ البدء، يلمس المرء تماماً، حضوراً مؤثراً للأخ الأستاذ (إحسان قاسم الصالحي) ليس كمترجم للنورسي فحسب، وإنما كأديب حساس، يملك تقنياته اللغوية، وخبرته المرنة اللتين يعرف بهما كيف يتجاوز موات النقل الحرفي أو النصي كما يفعل الكثيرون من أنصاف المترجمين، وكيف يجعل القارئ حاضراً تماماً في المناخ الأكثر مقاربة لمعطيات (النورسي) وبالتالي الأكثر إعانة للدارسين على التماس مع هذه المعطيات، خاصة إذا كانت المسألة

تتعلق بمتابعة البعد الجمالي الـذي لـن يتـأتى (تذوقـه) إلاّ مـن خـلال جهـد ترجماني مبدع، كذلك الذي بذله (الصالحي) على مـدى عـشرين سـنة .. ولا يزال.

[٣]

لغة (النورسي) لغة تعبيرية، ذات إيقاع شعري يتجاوز البحور والقوافي إلى ما اصطلح عليه بالموسيقى الداخلية للكلمات، والجمل، والتعـابير، وهـو بهذا المعنى ينفذ أداءً شعرياً دون أن يلزم نفسه بتقنيات الشعر كافة. قد يتعامل مع البحور أحياناً، لكنه لا يجد نفسه ملزمـاً بالتعامـل مـع القـوافي.. هـذا – بطبيعة الحال – أكثر تلاؤماً مع ما يعـرف بـالنثر الـشعري الـذي يتـأبى عـلى القوافي وإلا فقد خصائصه النوعية، رغم أن (النورسي) يتواضـع في مقدمتـه (اللوامع) التي تبدو فيها بصمات أستاذه (جـلال الـدين الرومـي) واضـحة، فيقول "إنه لم يقدر النظم والقافية قدرهما، لعدم معرفتي بهما، فالمرء عـدو مـا جهل" ويقول "لم أشأ قط تغيير صورة الحقيقة لتوافق أهواء القافية .. ولأجل هذا فقد ألبست أسمى الحقائق، أردأ الملابس في هذا الكتاب الخالي من القافية والنظم"[1] وهو يبرر هذا، فضلاً عن الجهـل بمطالـب الـشعر، بأنـه يريـد أن يحصر فكره في المعنى وحده دون اللفظ. لكن رؤيتـه للموضـوع تحمـل بعـداً نقدياً، وهـو يقولهـا بوضـوح: "لقـد أردت أن أبـين بهـذا الأسـلوب نقـدي

(١) الكلمات (المجلد الأول من كليات رسائل النـور)، ترجمـة إحـسان قاسـم الـصالحي، الطبعة الأولى، دار سوزلر للنشر، اسطنبول – ١٩٩٢ م، ص ٨٣٥.

لأولئك الشعراء الذين ينحتون الجسد ليوافق اللباس"[1] ويقول في مكان آخر: "إن اللفظ يغلظ مضراً بالمعنى، واللب على حساب القشر يقوى، والروح تضعف لأجل الجسد، والجسد يضعف ويهزل لأجل قوة الروح.. فالحقيقة والصورة تتناسبان إذن عكسياً زيادة ونقصاناً. أي كلما اخشوشنت الصورة رقّت الحقيقة، وكلما ضعفت الصورة تقوت الحقيقة بالنسبة نفسها. وهذا قانون شامل لجميع الأشياء الداخلة في قانون التكامل"[2]. وقد لا يكون هذا مقنعاً لأن الشاعر المتمرس: أستاذه جلال الدين الرومي مثلاً، سعدي، شيرازي، المتنبي، البحتري، المعري.. وغيرهم كثيرون.. قدروا على اجتياز الامتحان الصعب فجاءت قصائدهم كفاء المعاني المتألقة التي أرادوا أن يرسموها شعراً.

و(النورسي) يدرك هذا جيّداً، إذ ما يلبث أن يقول "لئن كنت قد أخطأت - وأنا أعترف به - فإياك أن تخطيء فتنظر إلى الأسلوب المتهرئ ولا تنعم النظر في تلك الحقائق الرفيعة، ومن ثم تهون من شأنها"[3] ويقول مؤكداً اعترافه: "لم أتمكن طوال حياتي من نظم بيت واحد أو من وزنه"[4].

إن (النورسي) يضعنا في (لوامعه) أمام مسألة (الشكل والمضمون) وهي مسألة قيل فيها الكثير منذ عصر الجاحظ وحتى عصر الناقد الفرنسي (رولان بارت) فليس ثمة من مبرر للوقوف عندها، لأننا جميعاً متفقون على أن

---

(١) نفسه، ص ٨٣٥.

(٢) نفسه، ص ٦٢٨.

(٣) نفسه، ص ٨٣٦.

(٤) نفسه، ص ٨٣٦.

الخطاب الأدبي لن يكون عملاً إبداعياً ما لم ينطو على الاثنين معاً"[1]، فلو أننا رجعنا إلى ما قاله (النورسي) نفسه فإننا سنجده، رغم تأكيده على المعنى، يمارس في (اللوامع) جهداً أدبياً " على حين غرة ألحت على فكري رغبة قوية في النظم، وقد كانت روحي ترتاح لما في كتاب (قول نوالا سيسيبان) من نظم فطري عفوي على نمط مدائح تصف غزوات الصحابة الكرام رضوان الله عليهم. فاخترت لنفسي طراز نظمه، وكتبت نثراً شبيهاً بالنظم. ولم أتكلف للوزن قطعاً. فليقرأه من شاء نثراً قراءة سهلة دون تذكر بالنظم واهتمام به، بل عليه أن يعده نثراً ليفهم المعنى، إذ هناك ارتباط في المعنى بين القطع، وعليه ألا يتوقف في القافية[2] فكما تكون الطاقية والطربوش بلا شرابة كذلك يكون الوزن أيضاً بلا قافية، والنظم بلا قاعدة بل اعتقد أنه لو كان اللفظ والنظم جذابين صنعة يشغلان فكر الإنسان بهما ويشدانه إليهما، فالأولى إذن أن يكون اللفظ بسيطاً من غير تزويق لئلا يصرف النظر إليه"[3] وهذا يكفي.

لكن إذا تجاوزنا (اللوامع) كعمل يراد له أن ينتمي، بشكل أو آخر، إلى (النوع الشعري)، وفتحنا مدى الرؤية على (الكلمات) كلها فإننا سنجد أنفسنا قبالة "أديب" من طراز عال يعرف كيف يوظف آليات اللغة وقدرات البلاغة من استعارة ومجاز وتكنية " وتشبيه وتخييل .. إلى آخره للتعبير عن معانيه. والأهم من هذا أن لغة النورسي لا تكاد تتخلى إلا في حالات ضرورية يقتضيها السياق، عن إيقاعها الشعري الذي يحمل دائماً منظومة من

(١) انظر: الفصل الثالث من كتاب (مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي) للمؤلف، مؤسسة الرسالة، بيروت- ١٩٨٧م.
(٢) الكلمات، ص ٨٣٦.
(٣) الكلمات، ص ٨٣٦.

الأفكار العميقة الخصبة، ويستفز قارئه لأن ينقب معه عن المزيد .. إنه - باختصار- أديب متمرس يضع نفسه ولغته وفكره في حوار موصول إزاء الكون والعالم والإنسان، لكي يصل دائماً إلى الجواب نفسه: "الإسلام"، بكل ما تحمله الكلمة وتتسع له من انفساح يبدأ بالجزئيات والذرات التي لا ترى، وينتهي بالكتلة الكونية التي تغيب أطرافها النائية في طوايا الأبعاد الزمانية والمكانية، مروراً بالوجود والحياة والكائنات والطبيعة والإنسان.

تواضعه، أو إن شئنا تبرؤه في (اللوامع) من صنعة الشعر، لا يعفيه من تحمل مسؤوليته كأديب. فإذا تذكرنا مقولة (سارتر) عن الشعر، وتأبيه على الالتزام ربما بسبب من جموحه واندفاعه التعبيري الذي يخرج عن إرادة الشاعر نفسه .. إذا تذكرنا أن النثر وحده هو الذي يلتزم -في المنظور السارتري- فيعرف كيف يعبر عن الأفكار الكبيرة، فإننا نجدنا كرة أخرى قبالة النورسي الأديب الذي لا يقدم لقارئه معان كبيرة فحسب، ولكنه يقدمها بأعذب أسلوب وأكثر الصيغ شفافية وجمالاً.

[٤]

والنورسي، فضلاً عن موسيقى الكلمات التي تصوغ نثراً شعرياً منثوراً، يوظف العديد من التقنيات البلاغية لتحسين خطابه الأدبي وجعله أكثر جمالية وتأثيراً: المثل، الحكاية، الرمز، الحوار، الصورة أو الجملة التعبيرية المرسومة بعناية.. الضمائر.. صيغ النداء.. المجازات.. الاستعارات.. التشبيهات.. الكنايات.. والمفردات.

لنبدأ بهذه الأخيرة.. إن قارئ (الكلمات) يعثر بين لحظة وأخرى على مفردات مشتقة من قاموس الجمال: الشعاع، التلألؤ، الزينة، الصنعة، النور، الغصون، الرشحات، اللوامع، القطرات، الجوهرة، الألماس، الشعلة، الزاهي، القشيب، المزركش، القبس، الجلوة، اللآلئ، الزهيرة، اللطيفة، الوضاءة، الشفافية، النورانية، شمة النسيم، البحر، التجميل، الأزاهير، الحسن، نوى الحقائق، الروعة، الإبداع، الانسجام، الجمال، الإتقان، الكمال، الضياء، الألوان، الأصوات..

فإذا تذكرنا أن جل هذه المفردات أريد لها أن تكون عناوين أو مرتكزات للعديد من الموضوعات التي عالجها النورسي، عرفنا كيف أنه يتعامل مع الأفكار الكبيرة التي كانت تؤرقه، ليس بصيغ التعبير الجافي الذي يخلو -باسم المنطق والنزوع العلمي- من أية لمسة جمالية، وإنما بأكثر الصيغ شفافية ورواء.

لنتابع - أيضاً- صيغ النداء المؤثرة التي اعتاد أن يبدأ بها، أو يختم، الكثير من تأملاته: "فيا أيها الأخ" "فيا من ينصت معي" "يا صاحبي !" "يا أخي!" "فيا صديقي!" "أسمعت يا صاحبي ما يقول؟" "فيا نفسي الحائرة!" "انظر أيها الغافل!" "تعال!" "فيا نفسي الغافلة!" "فإذا فهمت يا أخي" "يا صاحبي في الخيال!" "يا نفسي! أيتها السادرة في الغفلة" "يا نفسي الجاهلة! " "يا نفسي الموسوسة!" "يا نفسي الكسول!" "يا نفسي المغرمة بالفخر، المعجبة بالشهرة، الهائمة وراء المدح والثناء" "يا نفسي الغوية!" "يا نفسي الشقية!" "يا نفسي الجزعة!" "يا نفسي الطائشة!" "يا نفسي الشرهة!" "يا نفسي المغرمة

بالدنيا!" "أيها الغافل الغارق في عبادة الأسباب!" "يا أيها الغافل المتردي في مستنقع الطبيعة!" "فيا أيها الإنسان!".

إنه في نداءاته هذه يجعل الخطاب الأدبي دعوة للمشاركة.. إثارة.. إعراباً عن الرغبة في ألا يبقى منفرداً.. أن يأتي إليه الآخرون ليريهم ما يرى، ويقنعهم بما يكاد يلمسه بعقله وحسه وبصيرته النافذة في الظواهر والموجودات والأشياء، بحثاً عن حكمة الله البالغة في كل صغيرة وكبيرة. إنه يستخدم – حيناً – أرق صيغ النداء وأكثرها شفافية لكي يجعل (الآخر) يتحرك، مقترباً أكثر فأكثر، وكأنه يعرف تماماً، انه بمجرد الاستجابة لندائه، فإنه سيضعهم - بالتأكيد – على حافة الملكوت، وحينذاك لا يمكن إلا لمن ضرب على عقله وقلبه حجاب من الغفلة أو الجهل أو الكسل أو الإعجاب أو وسوسة الشيطان، أن يرفض الذهاب مع النورسي في رحلاته العذبة المؤثرة عبر مسالك الملكوت.

من ثم فإن نداءه قد يتحول إلى النقيض.. أيضاً لكي يستفز ويحرك، بل إنه ينادي نفسه أحياناً بما يضعها في مواقع الجهل والغفلة – وحاشاه – إنما هي التذكرة، والتواضع أمام الحقائق الكبرى، ولعلها تكون محاولة لكسر العوائق المتبقية التي قد تحجب الرؤية النقية للحقائق. وهو يعرف جيداً ما يريد أن يقوله، فإذا كان هو نفسه يستجيش نفسه بنداءات كهذه فأحرى بغيره أن يلتفت قليلاً إلى ما في نفسه هو، فإن هناك ألف ستار وستار من الغفلة والجهل والإعجاب بالذات تتحتم مجاهدتها والتغلب عليها وصولاً إلى موقع الاستشراف الذي تلقى فيه "النورسي" وهو يقف هناك لا يحجبه شيء: السر والشعاع.

هنـاك صـوره التعبيريـة المرسـومة بعنايـة: "تـذكرة مـرور في رحلـة الخلود"[1]، وهل يقال للشمس وهي في كبد السماء: أين هي؟[2] "تأمل في هذه الزهرة - وهي كلمة من كلمات القدرة الإلهية- إنها تنظر إلينا مبتسمة لنا لفترة قصيرة ثم تختفي وراء ستار الفناء"[3] "الزهرة أيضاً ترحل بعد أن تودع في ذاكرة كل من شاهدها صورتها الظاهرة، وفي بذيراتها ماهيتها المعنوية، فكأن كل ذاكرة وكل بذرة بمثابة صور فوتوغرافية تحفظ جمالها وصورتها وزينتها"[4] "إذا تصورت نفسك قبل ألف سنة مثلاً وقابلت بين جناحي الزمان الماضي والمستقبل ترى أمثلة الحشر والقيامة ونماذجها بعدد العصور والأيام"[5] "إن كل من يمتطي التاريخ ويذهب خيالاً إلى جهة الماضي سيرى أنه قد ماتت بعدد السنين منازل ومعارض وميادين وعوالم شبيهة بمنزل الدنيا وميدان الابتلاء ومعرض الأشياء في وقتنا الحاضر"[6] "فهؤلاء جميعاً يؤمنون بأن هذه الحقيقة الكبرى - أي الحشر - شعاع عظيم من اسم (الحق) الذي هو مرجع جميع الحقائق وشمسها، فيرشدون عبادك - بإذن منك - ضمن دائرة الحق، ويعلمونهم بعين الحقيقة"[7].

---

(١) نفسه، ص ٢٦.

(٢) نفسه، ص ٥٩.

(٣) نفسه، ص ٨٠

(٤) نفسه، ص ٨٠

(٥) نفسه، ص ٨٧.

(٦) نفسه، ص ٩٠.

(٧) نفسه، ص ١١٠.

كثيرة هي التعابير الأنيقة التي يصوغها النورسي في كلماته، وهي منبثة في كل مكان، مذكرة إيانا بأناشيد سليمان (عليه السلام) حيث يلتقي بتناسق عجيب الحكمة والجمال.

إن النورسي هنا يقدم لقرائه أفكاراً عن الرحيل والخلود.. عن الحقائق والظواهر .. عن الفناء والانبعاث ..ولكن بأي أسلوب ؟ إنه ها هنا يوظف الشمس، والزهرة، والبذرة، والصورة، والمنازل، والمعارض والميادين .. يوظف –أيضاً– حركة الزمن وحكم التاريخ ويستخدم مفردات الزينة والجمال من أجل أن يلبس أفكاره الرداء الجميل فيجعلها أكثر إغراءً وأشد تأثيراً.

والنورسي إذ يكثر من اعتماد "التشبيهات" و"التمثيلات البلاغية" –كما يسميها هو– يحذر من أن تؤخذ كحقائق مادية، إما بمرور الزمن، أو بانتقالها من يد العلم إلى يد الجهل[1].. إنما هي في نهاية الأمر أدوات لإعانة الخطاب الجمالي على تحقيق وظيفته، وهي بالتالي، وبحكم قوانين الإبداع الفني، لابد أن تكسر القياسات الاعتيادية، وتتجاوزها، صوب نسب وأبعاد لا تمت للحقائق المادية بصلة مباشرة، وتتشكل وفق منطقها الخاص الذي قد يكون أكثر حضوراً وتأثيراً وإقناعاً من صيغ الخطاب المباشر الملتصق بظواهر الأشياء وحجومها وأشكالها.

والنورسي يدرك تماماً هذا الذي يذهب إليه في مساحات واسعة من "كلماته"، ومن ثم فهو يفترض السؤال التالي من قبل حشود من القراء تتعامل مع الخطاب وفق مطالب المنطق: "تقولون: إنك تستعمل في "الكلمات" القياس التمثيلي كثيراً، بينما القياس التمثيلي لا يفيد اليقين حسب

(١) نفسه، ص ٣٨٩.

علم المنطق، إذ يلزم البرهان المنطقي في المسائل اليقينية، أما القيـاس التمثـيلي فيستعمل في المطالب التي يكفيها الظن الغالب، كما هـو لـدى علـماء أصـول الفقه. فضلاً عن أنك تذكر التمثيلات في أسلوب الحكايـة، والحكايـة تكـون خيالية، ليست حقيقية وقد تكون مخالفة للواقع"[1].

وما يلبث أن يجيب: "نعم! لقد ورد في علم المنطق: أن القياس التمثـيلي لا يفيد اليقين العلمي، إلا أن للقيـاس التمثـيلي نوعـاً هـو أقـوى بكثـير مـن البرهان اليقيني للمنطق. بل هو أكثر يقينـاً مـن الـضرب الأول مـن الـشكل الأول للمنطق. وذلك القسم هو: إظهار جزء وطرف من حقيقة كلية بتمثيل جزئي، ثم بناء الحكم على تلك الحقيقة، وبيان قـانون تلـك الحقيقـة في مـادة خاصة، كي تعرف منها تلك الحقيقة العظمى، وترجع إليهـا المـواد الجزئيـة. فمثلاً: الشمس توجد قريبة من كل شيء لماع - بوساطة النورانية - مـع أنهـا ذات واحدة. فبهذا المثال يبين قانون حقيقة هي: إنه لا قيد للنـور والنـوراني، فالبعيد والقريب سواء. القليل والكثير يتساوى، فلا همـا مكـان. ومـثلاً: إن تشكيل أثمار الشجرة وأوراقها وتصويرها في آن واحد، بطراز واحد، إنما هـو مثال لإرادة جزء من حقيقة عظمى وطرف مـن قـانون كـلي. فتلـك الحقيقـة وقانونها يثبتان إثباتاً قاطعاً أن تلك الكائنات الهائلة، كهـذه الـشجرة، يجـري عليها قانون الحقيقة هذا، فهي كالـشجرة ميـدان جـولان سر الأحديـة ذاك. فالقياسات التمثيلية في "الكلمات" كلها من هذا الطراز بحيث تكـون أقـوى من البرهان القاطع المنطقي وأكثر يقيناً منه"[2].

---

(١) نفسه، ص ٧٣٥.

(٢) نفسه، ص ٧٣٥ - ٧٣٦.

وبصدد الشطر الثاني من السؤال يقول: "من المعلوم في فن البلاغة، أنه إذا كان المعنى المقصود للفظ والكلام يراد لقصد آخر يعرف بـ (لفظ كنائي) ولا يكون المعنى الأصلي في اللفظ الكنائي مناط صدق وكذب. بل المعنى الكنائي هو الذي يكون مدار الصدق والكذب. فلو كان المعنى الكنائي صدقاً، فالكلام صدق، وان كان المعنى الأصلي كذباً، فلا يفسد كذب هذا صدق ذاك. ولكن لو لم يكن المعنى الكنائي صدقاً، وكان المعنى الأصلي صدقاً، فالكلام كذب. مثلاً: (طويل النجاد) أي: شخص حزام سيفه طويل. هذا الكلام كناية عن طول قامة ذلك الشخص، فان كان طويلاً حقاً، فالكلام صدق وصواب، وإن لم يكن له سيف ولا نجاد، ولكن إن لم يكن الرجل طويل القامة، وله سيف ونجاد طويل، فالكلام كذب لأن المعنى الأصلي غير مقصود. فالحكايات الواردة في الكلمة العاشرة والكلمة الثانية والعشرين وأمثالها، هي من الكنايات بحيث أن الحقائق التي تختم بها الحكايات - وهي في منتهى الصدق والصواب والمطابقة مع الواقع - هي المعاني الكنائية لتلك الحكايات، فمعانيها الأصلية إنما هي منظار تمثيلي. فكيفما كان لا يفسد صدقها وصوابها. فضلاً عن أن تلك الحكايات إنما هي تمثيلات أظهر فيها لسان الحال في صورة لسان المقال، وأبرز فيها الشخص المعنوي في صورة شخص مادي وذلك لأجل إفهام العامة"(١).

فالأدوات البلاغية، على ذلك، لا تستهدف المطالب الجمالية فحسب، وإنما تتوخى الضرورات العملية، إذا صح التعبير، وهي هنا الإعانة على تحقيق التواصل بين المبدع والمتلقي، حتى ولو كان الأخير ممن لا يرقى إلى المستويات المعرفية العليا.

---

(١) نفسه، ص ٧٣٦ - ٧٣٧.

[٥]

والحوار - كأداة بلاغية - يعتمد هو الآخر في أكثر من مكان في رسائله وهو ينتشر على مساحات واسعة بحيث يصعب - التزاماً بالإيجاز - اقتباس شاهد منه؛ ويكفي أن نحيل القارئ إلى بعض النماذج[1] والنورسي ها هنا، بدلاً من أن يجادل من طرف واحد ويحكي بضمير المتحدث العالم بكل شيء، كما يقول نقاد الرواية المحدثون، يجعل الشخوص نفسها تتحاور، وينسحب هو - أحياناً - لكي يمنح الجدل حيوية أكثر ويجعله يتجاوز صيغ التأمل العقلي الخالص، إلى تقابل مؤثر بين الأفكار وهي تتشكل في واقع الحياة من خلال الشخوص التي تتحاور .. ليس هذا فحسب، بل انه يجعل جدلهم يبعد، أكثر فأكثر، عن جفافه العقلي فيستعير من مفردات الحياة نفسها الكثير من الصور، والكلمات والتعابير ويمنحها عفوية وصدقاً فنياً.

هنالك (المثل) الذي يوظفه النورسي في رسائله كافة بكثافة ملحوظة[2].

ها هنا يكفي أن نتابع شواهد محددة ويمكن للقارئ أن يرى بنفسه حشوداً من الأمثلة المنبثة في كل مكان، عبر الصفحات التي أحلنا إليها قبل قليل.

يمثل للإنسان الذي يترك صلاته من أجل هموم العيش "بذلك الجندي الذي يترك تدريبه وخندقه ويتسول متسكعاً في الأسواق. بينما الذي يقيم الصلاة، دون أن ينسى نصيبه من الرزق، يبحث عنه في مطبخ رحمة الرزاق

(١) نفسه، ص ٥٩، ٣١٠ - ٣١٢، ٣٦٧ - ٣٦٩، ٧٠٨ - ٧١٧.

(٢) انظر الصفحات ٢٠، ٧٧ - ٨٠، ١٣٧، ١٦٩ - ١٧٠، ١٧٥ - ١٧٨، ١٩٠ - ١٩١، ١٩٢، ٢١٩، ٣١٣ - ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦ - ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٨ - ٣٢٩، ٣٥٠ - ٣٥١، ٣٦٣ - ٣٦٤، ٣٦٦، ٣٦٧ - ٣٦٩، ٣٨٨، ٣٩٦-٣٩٧، ٣٩٨- ٣٩٩، ٤١٥، ٤١٧.

الكريم لئلا يكون عالة على الآخرين. فجميل عمله، بل هو رجولة وشـهامة وهو ضرب من العبادة أيضاً"[1].

ويمثل الإنسان الذي يحصر نظره كله في الدنيا فيحيل اللذة الحلوة إلى ألم مرير فيقول: "هب أنه في هذه القرية (بارلا) رجلان اثنان: أمـا أحـدهما فقـد رحل تسعة وتسعون بالمائة من أحبته إلى اسطنبول وهم يعيشون هناك عيـشة طيبة جميلة، ولم يبق منهم هنا سوى شخص واحد فقط وهو أيـضاً في طريقـه إلى الالتحاق بهم، لذا فإن هذا الرجل مشتاق إلى اسطنبول أشد الاشتياق، بل يفكر بها ويرغب في أن يلتقي الأحباب دائماً. فلـو قيـل لـه في أي وقـت مـن الأوقات: هيا أذهب إلى هناك، فإنه سيذهب فرحاً باسماً. أمـا الرجـل الثـاني فقد رحل من أحبته تسعة وتسعون بالمائة، ويظن أن بعضهم فني، ومنهم مـن انزوى في أماكن لا ترى. فهلكوا وتفرقوا حسب ظنه. فهذا الرجـل المسكين ذو داء عضال يبحث عن أنيس وعن سلوان حتى عند سائح واحد، بدلاً من أولئك جميعاً ويريد أن يغطي به على ألم الفراق الشديد.

"فيا نفسي! إن أحبتك كلهم، وعلى رأسهم وفي مقـدمتهم (حبيـب الله) صلى الله عليه وسلم هم الآن في الطرف الآخر مـن القـبر. فلـم يبـق هنـا إلا واحد أو اثنان وهم أيضاً متأهبون للرحيل. فلا تديرنّ رأسك جفلـة المـوت، خائفة من القبر، بل حدقي في القبر وانظري إلى حفرته بشهامة واسـتمعي إلى ما يطلب. وابتسمي بوجه الموت برجولة وانظري ماذا يريد! وإياك أن تغفـلي فتكوني أشبه بالرجل الثاني"[2].

---

(١) نفسه، ص ٢٠.

(٢) نفسه، ص ١٩٢ - ١٩٣.

ويمثل لإرادة الله الواحد المبدع بالصورة التالية: "تعال يا صديقي إلى نزهة نتجول في (العالم) الواسع المفروش أمامنا. هاهو ذا جبل أشم، تعال لنصعد عليه حتى نتمكن من مشاهدة جميع الأطراف بسهولة، ولنحمل معنا نظارات مكبرة تقرب لنا ما هو بعيد عن أنظارنا. فهذه المملكة فيها الأمور العجيبة والحوادث الغريبة ما لا يخطر على بال أحد. انظر إلى تلك الجبال والسهول المنبسطة والمدن العامرة، انه أمر عجيب حقاً إذ يتبدل جميعها دفعة واحدة، بل إن ملايين الملايين من الأفعال المتشابكة تتبدل تبدلاً بكل نظام وتناسق، فكأن ملايين الأطوال من منسوجات ملونة رائعة تنسج أمامنا في آن واحد. حقاً إن هذه التحولات عجيبة جداً. فأين تلك الأزاهير التي ابتسمت لنا، والتي أنسنا بها؟ لقد غابت عنا، وحلت محلها أنواع مخالفة لها صورة مماثلة ماهية. وكأن هذه السهول المنبسطة وهذه الجبال المنصوبة صحائف كتاب يكتب في كل منها كتب مختلفة في غاية الإتقان دون سهوٍ أو خطأً. ثم تمسح تلك الكتب ويكتب غيرها. فهل ترى يا صديقي أن تبدل هذه الأحوال وتحول هذه الأوضاع الذي يتم بكل نظام وميزان يحدث من تلقاء نفسه؟ أليس ذلك محال من أشد المحالات؟ ..."(1).

إن النورسي في مناقشاته التي تستهدف تأكيد الحقائق الإيمانية في هذا العالم، يجد نفسه مضطراً لاعتماد صيغ الاستدلال العقلي الصرف ولكنه، من اجل ان يجعل استدلاله اكثر حيوية، وإقناعاً، يتجاوز التجريد بضرب الأمثال المستمدة من واقع الحياة والوجود فيكسب هياكله الذهنية لحماً ودماً ويمنحها بعداً تجسيدياً، تعينه عليه قوة خياله التي تنضاف إلى قدرته العقلية، وخزينه

---

(1) نفسه، ص ٣١٥.

الفكري، فتجعل من أمثلته نماذج خصبة ومؤثرة لاستلهام الدعاة، وهو إنما يتأسى في ذلك بكتاب الله حيث يجعل اثنتين من آياته البينات مدخلاً لكلمته الثانية والعشرين: ﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (سورة إبراهيم:٢٥) ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الحشر:٢١).

[٦]

والحكاية، أو القصة القصيرة -أحياناً- أداة أخرى من أدوات النورسي، يسخرها في أكثر من مكان للتحقق بتواصل بينه وبين قرائه أكثر وضوحاً وأشد تأثيراً. إنها - والمثل- في نهاية الأمر وسيلتا إيضاح بلاغيتين فلماذا لا يوظفهما الرجل وهو يلاحق بكشافه الإيماني المضيء كل بقع الظلمة ومنحنياتها في هذا العالم.

منذ الصفحة الأولى، من الكلمة الأولى، وبعد أن يبدأ (بسم الله) يسرد علينا النورسي هذه الحكاية التمثيلية القصيرة، كما يؤثران يسميها هو: "أن البدوي الذي يتنقل في الصحراء ويسيح فيها لابد له أن ينتمي إلى رئيس قبيلة، ويدخل تحت حمايته، كي ينجو من شر الأشقياء، وينجز أشغاله ويتدارك حاجاته، وإلا فسيبقى وحده حائراً مضطرباً أمام كثرة من الأعداء ولا حد لها من الحاجات.

"وهكذا، فقد توافق أن قام اثنان بمثل هذه السياحة، كان أحدهما متواضعاً والآخر مغروراً، فالمتواضع انتسب إلى رئيس، بينما المغرور رفض الانتساب. فتجولاً في هذه الصحراء. فما كان المنتسب يحل في خيمة إلا

ويقابل بالاحترام والتقدير بفضل ذلك الاسم وان لقيه قاطع طريق يقول له: إنني أتجول باسم ذلك الرئيس. فيتخلى عنه الشقي. أما المغرور فقد لاقى من المصائب والويلات، ما لا يكاد يوصف، إذ كان طوال السفرة في خوف دائم ووجل مستمر، وفي تسول مستديم، فأذل نفسه وأهانها.

"فيا نفسي المغرورة اعلمي! انك أنت ذلك السائح البدوي. وهذه الدنيا الواسعة هي تلك الصحراء. وان فقرك وعجزك لا حد لهما، كما أن أعداءك وحاجاتك لا نهاية لهما. فما دام الأمر هكذا فتقلدي اسم المالك الحقيقي لهذه الصحراء وحاكمها الأبدي، لتنجي من ذل التسول أمام الكائنات، ومهانة الخوف أمام الحادثات"[1].

وانتهاء بالكلمة الثانية والعشرين حيث يلتقي القارئ بحكاية اكثر طولاً تنتشر على مدى أربع عشرة صفحة[2].

وبين الحكايتين يلتقي القارئ، عبر الرسائل جميعاً بالعديد من الحكايات[3].

والنورسي، عبر مثله وحكاياته، حتى محاوراته العقلية الصرفة، يستخدم الرمز لكي يكثف به معان ودلالات شتى، خاصة وانه كثيراً ما يتجاوز عتبات العالم المنظور إلى معطيات الغيب وأغوار الروح، حيث يصير الرمز، الذي تفصح عنه الكلمات اليومية المكرورة، مفتاحاً للدخول.

---

(١) الكلمات، ص ٦.

(٢) نفسه، ص ٣١٠ – ٣٢٣.

(٣) انظر الصفحات ٩- ١١، ١٢- ١٣، ١٥- ١٦، ١٨- ١٩، ٢١- ٢٢، ٢٦- ٢٧، ٣١- ٣٢، ٤٨- ٥٩، ١٢٩- ١٣٢، ١٤١- ١٤٣، ٣١٠ – ٣٢٣.

[٧]

بعد هذا كله، يبقى الإيقاع، أو النبض الشعري للغـة النـورسي، هـو اكثـر ميزاته الجمالية تألقاً وعطاءً في (الكلمات) التي ما تلبث أن تغدو، بين الحين والحين قصيدة عذبة، أو نـشيداً سـاحراً، أو خطابـاً وجـدانياً مترعـاً بـالحزن والـشجن والرغبة المعذبة في تخليص الإنسان من أوهامه وضلالاته وآلامه وضياعه.

هذا الخطاب الجمالي الذي طالما بدأ بنقطة ارتكاز محددة، لكي مـا يلبـث أن يفرد جناحيه ويحلق في الملكوت، مجتازاً كل العقابيل والموانـع والمتـاريس، مصعداً في السماوات، موغلاً في أغوار الروح، متنقلاً في عوالم الغيب، عائـداً، – بين لحظة وأخرى – إلى عـالم الـشهادة حيـث ينتظـره ألـف مـن الحيـارى الباحثين عن الصراط... يرجع وهو يحمـل إلـيهم ألـف دليـل ودليـل لكـي يقودهم إلى ما يتوقون إليه. وهو – في كل الأحوال– في أدوار رحلتـه جميعـاً، ما ينسى لحظة أن يستضيء بشعاع واحد هو الشعاع الوحيد القادر على إنـارة الطريق للمدلجين في الظلمات بحثاً عن الحقيقة.. إنه كتاب الله وسـنة رسـوله عليه أفضل الصلاة والسلام.

إن مساحات واسعة من نسيج (الكلمات)، بل المساحات الأوسع، لهـي – بمعنى من المعاني– عروض بلاغية مترعة بـالجمال والجـلال، لا لـشيء إلا لأنها تتحدث عن إبداعية الله في الكون وتتلقـى الإشـارة مـن كلـمات كتابـه المعجز وسحره الحلال، فتكسب – هي الأخرى – قيمتها الجمالية لأنهـا – إذا استعرنا مصطلحات البلاغيي– تجيء مطابقة لمقتضى الحال.

ماذا يأخذ المرء وماذا يدع؟! الشواهد كثـيرة، بـل إنهـا كـما قلنـا في بـدء البحث متعاشقة في الكلـمات الـثلاث والثلاثـين، يـصعب فـصلها، ولـذا –

وللمرة الخامسة أو السادسة- سنكتفي بإحالة القارئ إلى نماذج منها لكي يتعامل بنفسه مع ما يمكن تسميته بنمط الشعر العالي، المنثور، الذي يحمل أفكاراً كبيرة دون أن يتخلى عن اللغة الجميلة، العذبة التي تنث بهاءً، الأمر الذي يعود بنا ثانية إلى (الإيضاح) الضروري الذي قدم به النورسي منظومته التي سماها (اللوامع).

تنتهي (الكلمة الأولى) بهذا الدعاء العذب: "فيا نفسي!! أعطي باسم الله، وخذي باسم الله، وابدأي باسم الله، واعملي باسم الله "[1].

وتختتم (الكلمة الثانية والثلاثون) بهذه المناجاة التي يستعيرها النورسي من العابد المعروف (أويس القرني): "إلهي أنت ربي وأنا العبد، وأنت الخالق وأنا المخلوق، وأنت الرزاق وأنا المرزوق، وأنت المالك وأنا المملوك، وأنت العزيز وأنا الذليل، وأنت الغني وأنا الفقير، وأنت الحي وأنا الميت، وأنت الباقي وأنا الفاني، وأنت الكريم وأنا اللئيم، وأنت المحسن وأنا المسيء، وأنت الغفور وأنا المذنب، وأنت العظيم وأنا الحقير، وأنت القوي وأنا الضعيف، وأنت المعطي وأنا السائل، وأنت الأمين وأنا الخائف، وأنت الجواد وأنا المسكين، وأنت المجيب وأنا الداعي وأنت الشافي وأنا المريض..."[2].

وبين الدعاء والمناجاة تتدفق جداول الحب واليقين، كما تدفقت قريباً من المكان نفسه (مثنويات) جلال الدين الرومي، هذا يكتبها شعراً، والنورسي يرسمها نثراً.. لكن النبض الشعري ما أخطأ الرجلين أبداً..

---

(١) نفسه، ص ٨.

(٢) نفسه، ص ٧٨١.

في آخر الكلمة الخامسة يخاطب النورسي نفسه قائلاً: "فيا نفسي! إن كنت تجعلين الحياة الدنيا غاية المقصد وأفرغت في سبيلها جهدك فسوف تكونين في حكم أصغر عصفور. أما ان كنت تجعلين الحياة الأخرى غاية المنى وتتخذين هذه الحياة الدنيا وسيلة لها ومزرعة، وسعيت لها سعيها، فسوف تكونين في حكم سيد الأحياء والعبد العزيز لدى خالقك الكريم، وستصبحين الضيف المكرم الفاضل في هذه الدنيا. فدونك طريقان اثنان فاختاري أيهما تشائين"[1].

وفي الكلمة السابقة يقول بكلمات تقطر حزناً، ما تلبث بقوة الإيمان أن تنقل الإنسان المؤمن إلى عالم الفرح والبهجة والجمال: "فيا نفسي الباكية على ما ضحكت أيام شبابها. اعلمي! أن ذلك الجندي المسكين المتورط هو أنت، وهو الإنسان، وان ذلك الأسد هو الأجل، وان أعواد المشنقة تلك هي الموت والزوال والفراق الذي تذوقه كل نفس. ألا ترين كيف يفارقنا كل حبيب أثر حبيب ويودعنا ليل نهار؟ أما الجرحان العميقان فأحدهما العجز البشري المزعج الذي لا حد له. والآخر هو الفقر الإنساني المؤلم الذي لا نهاية له. أما ذلك النفي والسفر المديد فهو رحلة الامتحان والابتلاء الطويلة لهذا الإنسان التي تنطلق من عالم الأرواح مارة من رحم الأم ومن الطفولة والصبا ثم من الشيخوخة ومن الدنيا ثم من القبر والبرزخ ومن الحشر والصراط. وأما الطلسمان فهما الإيمان بالله وباليوم الآخر. نعم أن الموت بهذا الطلسم القدسي.. يتخذ صورة براق يخرج الإنسان المؤمن من سجن الدنيا إلى روضة الجنان.. ومن هنا كان الكاملون من الناس يحبون الموت ويطلبونه، حيث

---

(١) نفسه، ص ٢٠.

رأوا حقيقته. ثم أن سير الزمان ومروره على كل شيء، ونفوذ الزوال والفراق والموت فيه يتخذ بهذا الطلسم الإيماني صورة وضاءة تحفز الإنسان إلى رؤية الجدة بتجدد كل شيء، بل يكون مبعث التأمل في ألوان مختلفة متنوعة وأنواع متباينة لمعجزات إبداع الخالق وتجليات رحمته سبحانه ومشاهدتها باستمتاع وبهجة كاملين.. نعم إن من يعتمد بهوية عجزه على سلطان الكون الذي بيده أمر (كن فيكون) كيف يجزع ويضطرب...؟[1].

وفي الكلمة العاشرة نستمع إلى هذا النداء: "يا من اسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، يا سلطاننا، أرنا منابع وأصول ما أريته لنا من نماذج وظلال. خذ بنا إلى مقر سلطنتك ولا تهلكنا بالضياع في هذه الفلاة. اقبلنا وارفعنا إلى ديوان حضورك. ارحمنا. أطعمنا هناك لذائذ ما أذقتنا إياه هنا، ولا تعذبنا بألم التنائي والطرد عنك. فها هم أولاء رعيتك المشتاقون الشاكرون المطيعون لك، لا تتركهم تائهين ضائعين ولا تفنهم بموت لا رجعة بعده"[2].

ونقرأ هذه الكلمات: " انظر كيف أنه يطالب الاستعانة مستغيثاً ببكاء، متضرعاً، راجياً من الأعماق متوسلاً.. حتى كأنه يسمع الموجودات جميعاً، بل السماوات، بل العرش، فيهزهم وجداً وشوقاً.."[3].

وفي الكلمة الثالثة عشرة يخاطب النورسي المخدوعين بالدنيا وكأنه يقف في مكان عالٍ يعينه على الاستشراف، فيرى مالا يرون: "فيا من فتنتم بزهرة الحياة الدنيا ومتاعها، ويا من يبذلون قصارى جهدهم لضمان الحياة

(١) نفسه، ص ٢٧ – ٢٨.

(٢) نفسه، ص ٥٢.

(٣) نفسه، ص ٧٤.

والمستقبل بالقلق عليهما ! أيها البائسون! إن كنتم ترومون التمتع بلذة الدنيا والتنعم بسعادتها وراحتها فاللذائذ المشروعة تغنيكم عن كل شيء. ولقد أدركتم أن كل لذة خارج نطاق الشرع فيها ألف ألم وألم، إذ لو أمكن عرض ما سيقع من أحداث مقبلة بعد خمسين سنة. على شاشة الآن مثلما تعرض الأحداث الماضية عليها لبكى أرباب الغفلة بكاءً مراً أليماً على ما يضحكون له الآن!"[1].

ويخاطب إخوته المسجونين: "اخوتي الأعزاء... لقد بت على قناعة تامة من أن العناية الإلهية هي التي ألقت بنا إلى ها هنا وذلك لأجلكم أنتم .. إن مجيئنا إلى هنا إنما هو لبث السلوان والعزاء الذي تحمله رسائل النور إليكم، وتخفيف مضايقات السجن عنكم بحقائق الإيمان، وصوته، من كثير من بلايا الدنيا ولأوائها، وانتشال حياتكم المليئة بالأحزان والهموم من العبثية وعدم الجدوى، وإنقاذ آخرتكم من أن تكون كدنيا حزينة باكية.."[2].

وفي الكلمة السابعة عشرة يورد النورسي قطعة تذكرنا (باللوامع) يقول عنها إنها جاءت بما يشبه الشعر، إلا أنها ليست شعراً، ولم يقصد نظمها، بل إن كمال انتظام الحقائق يجعلها تتخذ شكلاً شبيهاً بالنظم:

"... فيا رب ! لما كانت وسيلة النجاة هي هذه، فإنني أتخلى عن ذلك الجزء الاعتيادي وأتبرأ من أنانيتي في سبيلك.

"لتأخذ عنايتك بيدي، رحمة بعجزي وضعفي، ولتكون رحمتك مستندي رأفة بفقري واحتياجي... ولتفتح لي بابها.

(١) نفسه، ص ١٥٩.
(٢) نفسه، ص ١٧٠ - ١٧١.

"نعم كل من وجد بحر الرحمة الذي لا ساحل له، لا يعتمد على جزئه الاختياري، وهو كقطرة سراب، ولا يفوض إليه أمره من دون تلك الرحمة! يا أسفى، لقد خدعنا فظننا هذه الحياة الدنيا مستقرة دائمة وأضعنا بهذا الظن كل شيء.

" نعم، إن هذه الحياة غفوة قد مضت كرؤيا عابرة!

وهذا العمر الذي لا قرار له يذهب ذهاب الرميم

"إن الإنسان المغرور، المعتد بنفسه، ويحسبها أبدية، محكوم عليه بالزوال، أنه يذهب سريعاً.

أما الدنيا التي هي مأواه فستهوي في ظلمات العدم، فتذهب الآمال أدراج الرياح وتبقى الآلام محفورة في الأرواح..

"محبوب يغرق في أفق المغيب! ليس بمحبوب جميل، فالمحكوم عليه بالزوال لن يكون جميلاً حقاً ولا يحبه القلب، إذ القلب الذي خلق أصلاً ليعشق خالداً، ويعكس أنوار الصمد لا يود الزوال..

"مطلوب محكوم عليه بالأفول، ليس أهلاً أن يرتبط به القلب ولا يشد معه الفكر لأنه عاجز عن أن يكون موئلاً للآمال، فالنفس لا تذهب عليه حسرات، أتراك يعشقه القلب أو ينشده ويعبده؟

"مقصود يمحى في الفناء ويزول! لا أريده! أنا لا أريد فانياً.. فماذا يغني القانون عني؟!"[1].

---

(١) نفسه، ص ٢٣٣ - ٢٣٥.

وفي المقاطع الأخيرة من غنائيته العذبة هذه يكتب رسالة يستنطق بها النجوم، فتنصت لنشيدها الكوني الذي يمنح المرء القناعة بأن الأدب الإيماني هو في القمة بين الآداب .. أو هذا ما يجب أن يكون: "نحن ألوف العيون الباصرة تطل من السماء إلى الأرض وترنو إلى الجنة .. نحن ألوف الثمرات الجميلة لشجرة الخلقة علقتنا يد حكمة الجميل ذي الجلال على شطر السماء وعلى أغصان درب التبانة..

"هكذا نبين مائة ألف برهان وبرهان، بمائة ألف لسان ولسان ونسمعها إلى من هو إنسان حقاً. عميت عين الملحد لا يرى وجوهنا النيرة ولا يسمع أقوالنا البينة، فنحن آيات ناطقة بالحق.

"سكتنا واحدة، طرّتنا واحدة، مسبحات نحن عابدات لربنا، مسخرات تحت أمره.

نذكره تعالى ونحن مجذوبات بحبه، منسوبات إلى حلقة ذكر درب التبانة"(١).

وأخيراً.. في الكلمة الرابعة والعشرين نقرأ هذه الفقرة: "يا نفسي المحبة لنفسها، ويا رفيقي العاشق للدنيا! اعلمي أن المحبة سبب وجود هذه الكائنات والرابطة لأجزائها، وأنها نور الأكوان وحياتها. ولما كان الإنسان أجمع ثمرة من ثمرات هذا الكون فقد أدرجت في قلبه - الذي هو نواة تلك الثمرة - محبة قادرة على الاستحواذ على الكائنات كلها"(٢).

---

(١) نفسه، ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

(٢) نفسه، ص ٤١٠.

ففي هذه الفقرة - على إيجازها - نلتقي بمفردات المحبة التي ترد ثلاث مرات، والعشق، والنور، والكائنات والأكوان والحياة والقلب والثمرة.

إنها، فضلاً عن خلفياتها الفكرية التي تعبر عن التوجهات الكونية الشاملة لمعطيات النورسي، تومض برؤيته الموضوعية للجمالية والتي تكاد تغطي "الكلمات" من بدئها حتى منتهاها، وهي رؤية تنفسح على جماليات الكون والوجود وترى الإنسان أحد مراكز الثقل فيه، أو قطب الرحى. هذا القلب الذي يطوي جناحيه على الموجودات جميعاً وينبض بالمحبة التي يقوم بها الوجود، فتملك الاستحواذ - بإرادة الله - على الكائنات كلها!

وهذا ينقلنا إلى الفصل التالي من البحث والذي سيتابع - بالإيجاز المطلوب - "الموضوع الجمالي" في "الكلمات" على مستوى الطبيعة والعالم والكون.

الفصل الثاني

الطبيعة والعالم والكون

[١]

على مستوى (الموضوع الجمالي) الذي يتعامل النورسي معه، فإن القارئ يلحظ منذ الوهلة الأولى، كيف أن الرجل يعقد علاقة حميمة مع الكائنات.. ألفة مترعة بالود والمحبة والتفاهم مع كل شيء جميل في الوجود.. يقف حيناً عند جمالياته الباهرة لذاتها، ويمضي حيناً آخر لكي يدلل بها على فكرة ما، على قناعة، أو موضوعة، وهو يجادل (الآخر) أو ينشئ أفكاره وتصوراته ابتداء. وفي كل الأحوال يجد النورسي في الموضوع الجميل قرينة من أشد القرائن أهمية وثقلاً في تأكيد الإبداع الإلهي في الكون والعالم والحياة، وفي تفرده وقدرته التي لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء. إن الموضوع الجميل هو واحد من أكثر الطرق تكشفاً ووضوحاً في الذهاب إلى الله الواحد جل في علاه.

علاقة حميمة وألفة ميتافيزيقية تبدأ بالذرات التي لا ترى، وتنتهي بالسدم الكبرى الموغلة في أعماق الكون.. وتحكي عن دنيا الأشياء والنبات والحيوان، والطبيعة، صعوداً باتجاه الإنسان سيد المخلوقات وأكثرها إحكاماً في الصنعة.. ثم هو يمضي، مجتازاً المنظور والملموس عابراً العوائق والمتاريس، إلى ساحة الغيب التي لا ترى ولكنها تحس وتشم وتذاق وتخفق بها الروح التي أوتيت حظاً من الحساسية يتيح لها التواصل مع ما وراء حدود العالم القريب.

ها هنا أيضاً يمارس النورسي سياحته الأثيرة في عوالم الجمال.. وهي هنا في ساحات الغيب أشد روعة وأكثر اكتمالاً.. إنه يتحدث ويحاور الروح البشري.. البصيرة القديرة على التجاوز والاكتناه.. الملائكة السابحة في الملكوت.. الموت والبعث والنشور.. القيامة والحساب.. العقاب والثواب.. يصعد أكثر حتى يدخل الجنة فيحكي عما تنطوي عليه من معطيات يبلغ فيها التناسب الجمالي المثل الأعلى، ويعكس الصيغة الأكثر اكتمالاً للمفردات الجمالية المنقوصة التي قدر للإنسان ألا يعرف عنها في الحياة الدنيا إلاّ جذاذات وتفاريق وألا يذوق من طعومها إلا ما ينبئ بها ولكنه لا يكاد يعطيها!

لا ينسى النورسي.. وكيف؟ أن يتحدث عن الرسول المعلم صلى الله عليه وسلم، النموذج الكامل للإنسان كموضوع جمالي، وعن خبراته الغيبية الملتحمة الأسباب بجماليات الكون والوجود.. عن كتاب الله، حيث يخصص رسائل بكاملها متحدثاً عن إعجازه الإلهي الباهر في الشكل والمضمون.

ثم هو يصعد في كلماته محاولاً أن يأخذ بيد قرائه وتلامذته لكي يقفهم في نهاية الأمر قبالة الجلال والجمال الإلهيين، وهي قمة الإحسان كما يحدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نعبد الله كأننا نراه.. ها هنا حيث يمنحنا النورسي، الكثير المترع بالخصب والوعد والعطاء.. متمركزاً، كأي مسلم جاد في هذا العالم، عند التوحيد الذي هو أساس الأسس في معمار هذا الدين، وكل دين حق أريد له أن يقود الإنسان من جاهلية الصنميات والأوثان صوب وحدانية الله الذي لا إله إلا هو.

الموضوع الجمالي بمفرداته وآفاقه كافة ينبض في سيال (الكلمات) من بدئها حتى منتهاها إنه لدى النورسي، يصير حياة تخفق وأشياء تتحدث وظواهر تقول وتحكي.. هو - بشكل من الأشكال- حوارية الإنسان مع العالم والطبيعة والكون والوجود .. مع الأشياء والنبات والحيوان.. مع الملائكة والجان والشياطين.. وهو - إذا وسعنا المنظور- إبداعية الله في خلقه، وكلماته التي ما لها من نفاد.

ما من شيء أو كائن أو موجود في هذا العالم إلا ويعكس حالة جمالية: بالصوت، باللون، بالشذى، بالحركة والايماءة، وبالتصميم البديع. مهندسة هي العوالم والأكوان في نظام الخلق المبدع.. والكتاب الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم تنزلت آياته وسوره وهي تتألق تناسباً وتناظراً وجمالاً، في موضوعاتها وفي تكويناتها الأسلوبية على السواء.. الرسول ذاته عليه أفضل السلام.. هذا الإنسان الكامل.. يصير في المنظور نفسه موضوعاً جمالياً لم يقل أحد يوماً ما قال، ولا فعل ما فعل، ولا تشكل كما تشكل وهو في عين الله.

نحن المسلمين في العالم، منذ لحظات التأمل النبوي الأولى في جبل النور وحتى يقوم الحساب وتتكشف جماليات الجنة التي ما رأتها عين ولا سمعتها أُذن ولا خطرت على قلب أحد، يريد النورسي أن يقول، نحن أبناء الجمال وعشاقه.. هو لغة الخطاب بيننا وبين العالم، وطريق الوصول إلى الله.

النبتة وهي تشق الأرض وتشتعل بالورد.. الطير وهو يسبح في السماء.. النبع وهو يتدفق بالماء .. الشمس وهي تفيض بالضوء، القمر وهو يخفق بالنور.. وآلاف المرئيات والخلائق والكائنات والأشياء تنادينا باللغة نفسها.. وتعلمنا.. والنورسي يتلقى الإشارة ويقيم بينه وبين الكائنات جسراً من

المحبة والألفة يجتازه موغلاً أكثر فأكثر في حقائق الوجود وأسراره وعجائبه.. يقول: "وهكذا.. فالجنة زهرة. والحور زهرة. وسطح الأرض زهرة. والربيع زهرة. والسماء زهرة. ونقوشها البديعة النجوم. والشمس زهرة وألوان ضياءها السبعة أصباغ نقوش تلف الزهرة. والعالم إنسان جميل عظيم، مثلما إن الإنسان عالم مصغر، فنوع الحور، وجماعة الروحانيات، وجنس الملك، وطائفة الجن، ونوع الإنسان، كل من هؤلاء قد صور ونظم وأوجد في حكم إنسان جميل، كما أن كلاً منهم مرايا متنوعة متباينة لإظهار جماله سبحانه وكمال رحمته ومحبته. وكل منهم شاهد صدق لجمال وكمال ورحمة ومحبة لا منتهى لها، وكل منهم آيات جمال وكمال.."[1].

[٢]

لنبدأ بالذرات التي لا ترى .. إن تحولاتها وجولانها، يقول النورسي "عبارة عن اهتزازات الذرات نفسها وتنقلها أثناء كتابة قلم القدرة الإلهية للآيات التكوينية في كتاب الكون. فهي ليست كما يتوهمه الماديون والطبيعيون من أنها ألعوبة المصادفة في حركة عشوائية لا معنى لها ولا مغزى. ذلك لأن كل ذرة، تقول في مبدأ حركتها: "بسم الله" كما تقوله جميع الموجودات، حيث إنها تحمل أثقالاً هائلة، تفوق كثيراً طاقتها المتناهية، كحمل بذرة الصنوبر على أكتافها شجرتها الضخمة، ثم عند انتهاء وظيفتها تقول: (الحمد لله) حيث إنها أظهرت أرثاً بديعاً كأنه ينشد قصيدة رائعة في الثناء على الصانع الجليل، لما

(١) الكلمات، ص ٧٥٤.

فيه من جمال الإتقان الحكيم، وروعة صورة تنم عن مغزى عميق تتحير منه العقول. فإن شئت فأنظر بإنعام إلى الرمان والذرة"[1].

في مبحث آخر يتحدث النورسي عن "تسبيح الأشياء": "إن في كل شيء وجوهاً كثيرة جداً متوجهة – كالنوافذ – إلى الله سبحانه وتعالى بمضمون الآية الكريمة ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ (سورة الإسراء: ٤٤)

إذ أن حقائق الموجودات وحقيقة الكائنات تستند إلى الأسماء الإلهية الحسنى، فحقيقة كل شيء تستند إلى اسم من الأسماء أو إلى كثير من الأسماء وأن الإتقان الموجود في الأشياء يستند إلى اسم من الأسماء.. الحقائق الحقيقية للأشياء إنما هي الأسماء الإلهية الحسنى، أما ماهية الأشياء فهي ظلال تلك الحقائق. بل يمكن مشاهدة آثار تجلي عشرين اسم من الأسماء على ظاهر كل ذي حياة.."[2].

بعدها يصعد النورسي لكي يتعامل مع كل موضوع جميل في الملكوت.. انه يمد المنظور في الطول والعرض والعمق والارتفاع.. يبدأ رحلته من عالم الذرات والأشياء لكي لا تنتهي بعد ذلك أبداً.. إن الكون هو مشروع مفتوح لإبداعية الله جل وعلا.. والإنسان معني بالخطاب الجمالي، بل هو بالذات المقصود بهذا الخطاب..

والنوافذ التي أعطاه الله إياها تملك، إذ تلقت خفقة الإيمان واليقين، أن تتلقى الخطاب في كل زمن أو مكان.. ومع كل الأشياء والخلائق والموجودات.. لهذا يصير الإنسان مشروعاً مفتوحاً هو الآخر، قبالة الجمال،

(١) نفسه، ص ٦٥١ وأنظر الصفحات ٦٥٣ - ٦٦٥.

(٢) الكلمات، ص ٧٤٩.

ويتلقى ويتلقى ويتلقى حتى يفيض به الوجد، وتتقاذفه انعكاسات الوجود الجميل.. إنها لذة الحس والوجدان والروح، وهي الخمرة الحلال التي لو عرفنا كيف نشربها، كما قال (الرومي) أكثر من مرة، لسكرنا بمحبة الله، وهمنا في ملكوته الكبير.

أية حياة مترعة هذه التي يريدها الإسلام للمنتمين إليه؟ قارن هذا بحياة الآخرين المتضحلة، المسطحة، ذات البعدين.. الحياة التي لا تكاد تمس جوهر الوجود، ولا تعقد بينه وبين جمالياته أيما علاقة على الإطلاق.

النورسي وهو يدين هذه الحياة، يجعل كتابه كله، من ألفه حتى يائه، بديلاً.. مشروعاً مفتوحاً هو الآخر للوصال الجميل بين الإنسان والوجود هذا الذي يريده الله ذو الجلال والكمال. يقول في الكلمة السابعة: "إن سير الزمان ومروره على كل شيء، ونفوذ الزوال والفراق والموت .. يتخذ بهذا الطلسم الإيماني صورة وضاءة تحفز الإنسان إلى رؤية الجدة بتجدد كل شيء، بل يكون مبعث التأمل في ألوان مختلفة متنوعة، وأنواع متباينة لمعجزات إبداع الخالق ذي الجلال.. وتجليات رحمته سبحانه ومشاهدتها باستمتاع وبهجة كاملين، بمثل ما يضفي تبدل المرايا العاكسة لألوان نور الشمس وتغير الصور في شاشة السينما من جمال وروعة، إلى تكون المناظر الجذابة وتشكلها"[1].

ويتحدث عن تعاقب الليل والنهار، وتنقل ساعة الزمن بين آن وآن.. إن الألف والاعتياد يقتلان ما تنطوي عليه هذه الحركة في الزمن من دهشة، ويذهبان بمغزاها.

---

(١) نفسه، ص ٢٨.

لكن النورسي له رؤية أخرى لما يسميه "عالم الدنيا الذي هو ساعة إلهية كبرى": "فإن دوران الليل والنهار الذي هو بحكم الثواني للساعة، والسنوات التي تعد الدقائق، وطبقات عمر الإنسان التي تعد الساعات، وأدوار عمر العالم التي تعد الأيام كل منها يناظر الآخر، ويتشابه معه، ويماثله، ويذكر كل منها الآخر ويأخذ حكمه. فمثلاً: وقت الفجر إلى طلوع الشمس: يشبه ويذكر ببداية الربيع وأوله، وبأوان سقوط الإنسان في رحم الأم، وباليوم الأول من الأيام الستة في خلق السماوات والأرض، فينبه الإنسان إلى ما في تلك الأوقات من الشؤون الإلهية العظيمة. أما وقت الظهر فهو يشبه ويشير إلى منتصف الصيف، وإلى عنفوان الشباب، وإلى فترة خلق الإنسان في عمر الدنيا، ويذكر ما في ذلك كله من تجليات الرحمة وفيوضات النعمة. أما وقت العصر: فهو يشبه موسم الخريف، وزمن الشيخوخة وعصر السعادة الذي هو عصر خاتم الرسل محمد عليه الصلاة والسلام .. أما وقت المغرب، فانه يذكر بغروب أغلب المخلوقات وأفولها نهاية الخريف، ويذكر أيضاً بوفاة الإنسان وبدمار الدنيا عند قيام الساعة، ومع ذلك فهو يعلم التجليات الجلالية ويوقظ الإنسان من نوم الغفلة وينبهه. أما وقت العشاء فيذكر بغشيان عالم الظلام وستره آثار عالم النهار.. وهو يذكر – كذلك – بالتجليات الجمالية لخالق الأرض والسماوات، وبانكشاف عالم الآخرة الواسع الفسيح.."[1].

---

(١) نفسه، ص ٤٠، ٤٤.

[٣]

ويمعن النظر في معمار الكون المدهش فيراه " كالقصر البديع، الشمس والقمر مصابيحه، والنجوم شموعه وقناديله، والزمن شريط يعلق عليه الخالق ذو الجلال - في كل سنة- عالماً آخر يبرزه للوجود، مجدداً فيه صوراً منتظمة في ثلاثمائة وستين شكلاً وطرازاً، مبدلاً إياه بانتظام تام وحكمة كاملة، جاعلاً سطح الأرض مائدة نعم، يزينها في كل ربيع بثلاثمائة ألف نوع من أنواع مخلوقاته، ويملؤها بما لا يعد ولا يحصى من آلائه مع تمييز كل منها تمييزاً كاملاً على الرغم من تداخلها وتشابكها. وقس على هذه الأشياء الأمور الأخرى. فكيف يمكن التغافل عن صانع مثل هذا القصر المنيف؟ ثم ما أعظم بلاهة من ينكر الشمس في رابعة النهار، وفي صحوة السماء! في الوقت الذي يرى تلألؤ أشعتها، وانعكاس ضوئها على زبد البحر وحبابه، وعلى مواد البر اللامعة، وعلى بلورات الثلج الناصعة لأن إنكار الشمس الواحدة ورفضها - في هذه الحالة - يستلزم قبول شميسات حقيقية أصيلة بعدد قطرات البحر، وبعدد الزبد والحباب وبعدد بلورات الثلج.."[1].

ويمضي النورسي إلى القول بأن "كل ذرة من ذرات الهواء تستطيع أن تدخل في كل زهرة، وفي كل ثمرة، وفي كل ورقة، وتتمكن أن تؤدي دورها هناك. فلو لم تكن هذه الذرة مأمورة ومسخرة للزم أن تكون على علم بأشكال ما تمكنت من الدخول فيه، وبصورته وتركيبه أي يجب أن تكون ذات علم محيط وقدرة شاملة كي تستطيع القيام بذلك. وكل ذرة من ذرات التراب يمكن أن تكون سبباً لنشوء البذور ونمو أنواعها جميعاً. فلو لم تكن

(١) نفسه، ص ٦١.

مأمورة ومسخرة للزم أن تحتوي آلات وأجهزة معنوية بعدد أنواع الأعشاب والأشجار، أو يجب منحها قدرة ومهارة بحيث تعلم جميع أشكال تراكيبها فتصنعها، وتعرف جميع صورها فتنسجها وقس على هذا سائر الموجودات حتى تفهم أن للوحدانية دلائل واضحة باهرة في كل شيء"(1).

إنه يتساءل: "أمن الممكن.. لمن أوجد كوناً بديعاً كهذا الكون، لغايات سامية ولمقاصد جليلة، إظهاراً لكماله، ثم لا يكون لديه ثواب للمؤمنين الذين قابلوا تلك الغايات والمقاصد بالإيمان والعبودية، ولا يعاقب أهل الضلالة الذين قابلوا تلك المقاصد بالرفض والاستخفاف؟"(2).

النورسي بتساؤله هذا يختصر الأمر بمعادلة واضحة ذات حدين، فليس عبثاً أن يكون هذا الوجود جميلاً.. وحاشا لله.. ولن يتساوى، إذن، من يتلقى إشارته فتحمله إلى مقامات الإيمان والعبودية والقرب من الخلاق المبدع، ومن يرين صدأ الضلالة على حسه وقلبه وعقله ووجدانه فلا يكاد يرى شيئاً أو يصل إلى شيء. إنها الخفقة التي يتميز بها الإنسان المؤمن وهو يتعامل مع الجمال وإلا فانه موات القلب الذي لا يسمع ولا يرى "فالجمال المطلق الذي زين بتجليه هذا الكون وجمله، والرحمة المطلقة التي أبهجت المخلوقات قاطبة وزينتها لاشك أنهما منزهتان ومقدستان بلا نهاية ولا حد عن هذه القساوة وهذا القبح المطلق والظلم المطلق "الذي يقضي" بالموت الأبدي والإعدام النهائي "للحياة ولجوهرها" الروح"(3).

---

(1) نفسه، ص ٦١ – ٦٢.

(2) نفسه، ص ٦٥.

(3) نفسه، ص ١١٧.

ومرة أخرى فان هذا التناسق المدهش في الخلق، يعرض ويؤكد بداهة من أشد المعطيات الإيمانية تكشفاً ووضوحاً، لأنه نقيض العبث والفوضى والتناقض واللا جدوى.. ابتداء.

وهاكم مثلاً مما يعرف النورسي جيداً كيف يرسمه بعناية ليدل ها هنا على طبيعة التعامل مع الموضوع الجمالي، ومساحته التي تضيق أو تتسع وفقاً للمنظور البشري نفسه "رجل يمسك مرآة تجاه الشمس فالمرآة تلتقط – حسب سعتها – نوراً وضياءً يحمل الألوان السبعة في الشمس. فيكون الرجل ذا علاقة مع الشمس بنسبة تلك المرآة، ويمكنه أن يستفيد منها فيما إذا وجهها إلى غرفته المظلمة، أو إلى مشتله الخاص الصغير المسقف، بيد أن استفادته من الضوء تنحصر بمقدار قابلية المرآة على ما تعكسه من نور الشمس وليست بمقدار عظم الشمس. بينما رجل آخر يترك المرآة، ويجابه الشمس مباشرة ويشاهد هيبتها ويدرك عظمتها، ثم يصعد على جبل عال جداً وينظر إلى شعشعة سلطانها الواسع المهيب ويقابلها بالذات دون حجاب ثم يرجع ويفتح من بيته الصغير ومن مشتله المسقف الخاص نوافذ واسعة نحو الشمس واجداً سبلاً إلى الشمس التي هي في أعالي السماء ثم يجري حواراً مع الضياء الدائم للشمس الحقيقية. فيناجي الشمس بلسان حاله ويحاورها بهذه المحاورة المكللة بالشكر والامتنان فيقول: (إيه يا شمس ! يا من تربعت على عرش جمال العالم ! يا لطيفة السماء وزهراءها! يا من أضيفت على الأرض بهجة ونوراً ! ومنحت الأزهار ابتسامة وسروراً، فلقد منحت الدفء والنور معاً لبيتي ومشتلي الصغير كما وهبت للعالم أجمع الدفء والنور). بينما صاحب المرآة السابق لا يستطيع أن يناجي الشمس ويحاورها بهذا الأسلوب

إذ أن آثار ضوء الشمس محددة بحدود المرآة وقيودها وهي محصورة بحسب قابلية تلك المرآة واستيعابها للضوء"[1].

[٤]

والنورسي، وهو يتأمل الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ (الملك:٥)، يدين الصيغ (المدرسية) الحديثة في التعامل مع الموضوع الجمالي. إنها تفقد الروح وتضيق الذهن وتنحدر بالعقل حيث يستعصي عليه استيعاب السر العظيم: "..ان تزيين العالم وتجميله بما لا يعد ولا يحصى من التزيينات والمحاسن والنقوش البديعة، يقتضي بداهة، جلب أنظار متفكرين مستحسنين ومقدرين معجبين، إذ لا يظهر الحسن إلا لعاشق، كما لا يعطى الطعام إلا لجائع.."[2].

وكلنا يعرف جيداً أنه عبر رحلته الدراسية، لم يكن ثمة رؤية شمولية متماسكة تربط المفردات المعرفية المعطاة للطلاب.. إنها تقدم إليهم مفككة مجزأة، فما يلبث المعنى النهائي للحقائق العلمية أن يضيع. وثمة ذلك الجدار العازل بين العقل والروح، بين الحس والوجدان، وبين المرئيات المادية ودلالاتها الجمالية، ما يزيد في تضييع الطالب وهو يتنقل في دراسته من مرحلة إلى أخرى. فما ثم إلا حالات استثنائية لا يقاس عليها قدرت على كسر الحصار والخروج إلى العالم في آفاته الرحبة، والتعلم كيف يكون ضوء الشمس ليس مجرد ظاهرة فيزيائية ولكن أيضاً – وفي الوقت نفسه – معطى جمالياً ينطوي على دلالات شتى.

---

(١) نفسه، ص ١٤٦ – ١٤٧.

(٢) الكلمات، ص ٢٠٢ وأنظر الصفحات ٢٠٢ – ٢١٠.

إن النورسي وهو يتأمل في مكان آخر الآية الكريمة ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (نوح:١٦) يرجع إلى هذه المسألة مرة أخرى "ففي تعبير السراج تصوير العالم بصورة قصر، وتصوير الأشياء الموجودة فيه في صورة لوازم ذلك القصر، ومزيناته، ومطعوماته لسكان القصر ومسافريه، وإحساس أنه قد أحضرتها لضيوفه وخدامه يد كريم رحيم. وما الشمس إلا مأمور مسخر وسراج منور. ففي تعبير السراج تنبيه إلى رحمة الخالق في عظمة ربوبيته وإفهام إحسانه في سعة رحمته.. فالآن استمع ماذا يقول الفلسفي الثرثار في الشمس: (إنها كتلة عظيمة من المائع الناري تدور حول نفسها في مستقرها، تطايرت منها شرارات وهي أرضنا وسيارات أخرى فتدور هذه الأجرام العظيمة المختلفة في الجسامة ضخامتها كذا.. ماهيتها كذا..). فأنظر ماذا أفادتك هذه المسألة غير الحيرة المدهشة والدهشة الموحشة فلم تفدك كمالاً علمياً ولا ذوقاً روحياً ولا غاية إنسانية ولا فائدة دينية. فقس على هذا لتقدر قيمة المسائل الفلسفية التي ظاهرها مزخرفة وباطنها جهالة فارغة.."[1].

ما الذي يريد النورسي أن يقوله وهو يتحدث عن (الشمس) كظاهرة طبيعية وجرم كوني ؟ انه يدلل على حالات عقلية ووجدانية وجمالية وإيمانية، في نهاية الأمر.. يربط بين الظواهر المادية والمعنوية، ويلحم ما بين شعاع الشمس الذي يضيء العالم ودفق النور الروحي الذي يزكي الإنسان ويخرجه من الظلمات[2].

---

(١) الكلمات، ص ٢٦٧.

(٢) انظر الصفحات ٢١٢ - ٢١٤.

يتحدث النورسي أيضاً، عن الجبال التي يملك كل منها "شخصية معنوية خاصة به وتسبيح خاص ملائم له، وعبارة مخصوصة لائقة به"(١).

عن النار التي تملك أمرها "فلا تعمل كيفما تشاء حسب هواها وبلا بصيرة، بل تقوم بمهمتها وفق أمر يفرض عليها، فلم تحرق سيدنا إبراهيم لأنها أمرت بعدم الحرق" وأن تصير برداً وسلاماً!(٢).

عن تحولات الطبيعة وتبدلاتها التي تنطوي على "ملايين الملايين من الأفعال المتشابكة.. فكأن ملايين الأطوال من منسوجات ملونة رائعة تنسج أمامنا في آن واحد.. حقاً إن هذه التحولات عجيبة جداً"(٣).

عن التناظر المدهش بين "الأشياء" في هذا العالم "البديع" ذي "النظام الشامل والانتظام الكامل كأن كل شيء فيه فاعل مختار حي يشرف على نظام المملكة كلها ويتحرك منسجماً مع ذلك النظام العام، حتى ترى الأشياء المتباعدة جداً يسعى الواحد منها نحو الآخر للتعاون والتآزر"(٤). عن "لمعان وتألق" الأنهار الجارية بعد زوال حبابها، وأنه ليس من الحباب بل "من مصدر نور دائم" تماماً كما يحدث في عالم الأفعال، حيث تبدلها المسرع المذهل "وتكون الحالات التي تعقبها وانصباغها بصفاتها" يدلنا على أن تلك الأفعال "إنما هي تجليات من هو دائم لا يزول، وقائم لا يحول" حيث تصير "الأشياء جميعاً نقوشه ومراياه وصنعته ليس إلا"(٥). عن الكرة الأرضية التي تبدو في

---

(١) نفسه، ص ٢٨٦.

(٢) نفسه، ص ٢٨٨.

(٣) نفسه، ص ٣١٥.

(٤) نفسه، ص ٣١٦.

(٥) نفسه، ص ٣٢١.

المنظور العلمي مجرد سيار ذي حجم متوسط يدور حول الشمس وهو جرم صغير قياساً على الكواكب التي لا تعد ولا تحصى، ولكنها في المنظور الإيماني تكسب معنى، بل معاني أخرى.. إنها "قلب الكون ومركزه.. ومعرض جميع المصنوعات المعجزة، وموضع تجلي الأسماء الحسنى كلها، حتى لكأنها البؤرة الجامعة لتلك الأنوار ومحشر الأفعال الربانية المطلقة ومرآتها، وسوق واسع لإبراز الخلاقية الإلهية المطلقة ولاسيما إيجادها الكثرة الهائلة من النباتات والحيوانات الدقيقة بكل جود وكرم، ونموذج مصغر لمصنوعات عالم الآخرة الواسع الفسيح، ومصنع يعمل بسرعة قصوى لإنتاج منسوجات خالدة، وموضع عرض لنماذج المناظر السرمدية المتبدلة بسرعة فائقة، ومزرعة مؤقتة لاستنبات بذيرات تربى بسرعة للبساتين الخالدة الرائعة. لهذا كله يجعل القرآن الكريم الأرض صنواً للسماوات.. وكأنها ثمرة صغيرة لشجرة ضخمة.. فهي في كفة والسماوات كلها في كفة.."[1].

[٥]

يرجع كرة أخرى إلى الجبال، والأرض، والشمس، فيدير المنظور من أكثر من زاوية ويحرك الكاميرا المحمولة لكي ينفذ (اللقطة) من كافة الجهات، وهو في الحالات الثلاث، يتعامل بحس جمالي مرهف مع هذه الظواهر الطبيعية، جنباً إلى جنب مع الأبعاد الأخرى التي تهم الجغرافيين والفلاسفة والعلماء[2].

---

(١) نفسه، ص ٤٠٢.

(٢) انظر الصفحات ٤٥٢ - ٤٥٥.

يتحدث أيضاً عن السماء الدنيا، بكواكبها وسياراتها ونجومها، عن حركتها المرسومة بعناية، وانسيابها الهادئ وتزيين وجهها الجميل، عن القدرة الإلهية التي تعطي الشمس وسياراتها وضعاً خاصاً شبيهاً بوضع معمل عظيم، عن وجه السماء وهو يتدفق "سطوعاً باهراً وتهللاً مهيباً، وتبسماً وبشاشة في زينة وجمال، مما يبين عظمة سلطنة الصانع الجليل ومدى الدقة في صنعته الجميلة. إذ كما أن إضاءة مصابيح وأنوار وإظهار مظاهر الفرح والبهجة في يوم اعتلاء السلطان العرش إنما هو لبيان درجة كماله في مضمار الرقي الحضاري، كذلك السماوات العظيمة بنجومها المهيبة تظهر لنظر المتأمل كمال سلطنة الصانع الجليل وجمال صنعته البديعة.. تشعشع سراجها، تهلل مصباحها، تلألؤ نجومها، تعلن لأهل النهي سلطنة بلا انتهاء.."[1].

ثم ما يلبث النورسي، وهو يقف منبهراً إزاء "الصحيفة الملونة الزاهية لكتاب الكون" أن يتلو هذا النشيد المترع بالمفردات والخبرات الجمالية:

"انظر.. كيف صوّرها قلم القدرة المذهب؟

لم تبق نقطة مظلمة لإبصار أرباب القلوب

فكأنه سبحانه قد حرر آياته من نور

انظر ما أعظمها من معجزة حكمة تقود إلى الإذعان!

وما أسماها من مشاهد بديعة في فضاء الكون!

واستمع إلى النجوم أيضاً، إلى حلو خطابها الطيب اللذيذ

لترى ما قرره ختم الحكمة النير على الوجود

إنها جميعاً تهتف وتقول معاً..

---

(١) نفسه، ص ٧٢٠.

نحن شواهد صدق على وجود الصانع الجليل وعلى وحدانيته وقدرته نتفرج كالملائكة على تلك المعجزات اللطيفة التي جملت وجه الأرض، فنحن ألوف العيون الباصرة تطل من السماء إلى الأرض وترنو إلى الجنة نحن ألوف الثمرات الجميلة لشجرة الخلق علقتنا يد حكمة الجميل ذي الجلال على شطر السماء وعلى أغصان درب التبانة..

هكذا نبين مائة ألف برهان وبرهان، بمائة لف لسان ولسان ونسمعها إلى من هو إنسان حقاً.

عميت عين الملحد لا يرى وجوهنا النيرة، ولا يسمع أقوالنا البينة فنحن آيات ناطقة بالحق سكتنا واحدة، طرتنا واحدة، مسبحات نحن عابدات لربنا، مسخرات تحت أمره نذكره تعالى ونحن مجذوبات بحبه، منسوبات إلى حلقة ذكر درب التبانة"(١).

حتى الأحجار والصخور والجواهر والمعادن، يدعونا النورسي لتأمل "تزييناتها ومزاياها التي تترتب عليها منافع شتى"(٢). وهو هنا، وفي أماكن عديدة أخرى يضع المنفعة والجمال في كفتي ميزان، لا تشيل إحداهما ولا تثقل الأخرى، إنهما - في المنظور الإسلامي- وجهان لحالة واحدة، تكاد تضم جل الكائنات، وهي ترتبط أشد الارتباط بمفهوم (التسخير) الذي يتحدث عنه كتاب الله مراراً.. وهو تسخير يضع بين يدي الإنسان منافع شتى، ولكنها ليست (المنفعة) الصرفة وحسب، وإنما المنفعة التي تحمل الوجه الجميل لكي تشبع في النفس حاجات أخرى.. إنها دائماً في سباق التركيب الكوني وفي

---

(١) نفسه، ص ٧٢١ - ٧٢٢.

(٢) نفسه، ص ٨٠٦.

نسيج الوجود: المنفعة والجمال.. "إن الله سبحانه وتعالى قد رفع ستائر العدم والأثير والسماء عن جوهرة الشمس التي تضيء الدنيا كالمصباح، فأخرجها من خزينة رحمته وأظهرها إلى الدنيا.. (إنها) موظفة ومأمورة بنشر غلالات الضوء في الأسحار ولفها في الأماسي، وهكذا يتناوب الليل والنهار.."[1].

[٦]

وبموازاة هذا، أو كامتداد له، يتحدث النورسي في أكثر من مكان عن العلاقة الحميمة بين المنظور العلمي للظاهرة الكونية وبين المنظور الجمالي. ونحن نجد نموذجاً مفصلاً لهذه الثنائية في (الكلمة الثالثة والثلاثين)[2] والتي يرد في سياقها كيف "أن الحياة تتضمن الرزق والرحمة والعناية والحكمة، التي كل منها سارية في الكائنات ومهيمنة على أمرها وخلقها وتدبيرها، فكأن الحياة تقود أولئك جميعاً معها أينما حلت. إذ حالما تحل الحياة في أيما جسم، إذا باسم (الحكيم) يتجلى فيه أيضاً، حيث يشرع ببناء عشه بناء متقناً وينظمه تنظيماً حكيماً. وفي الوقت نفسه يتجلى اسم (الكريم) أيضاً حيث يرتب مسكنه ويزينه وفق حاجاته، ويظهر آنئذ اسم (الرحيم) متجلياً أيضاً فيسبغ أفضاله وألطاف إنعامه لإدامة الحياة وبلوغ كمالها، وفي الوقت نفسه يتجلى اسم (الرزاق) بادياً للعيان حيث يهيئ المقومات الغذائية - المادية والمعنوية - لبقاء تلك الحياة وانبساطها.. إن الحياة كالبؤرة التي تتجمع فيها الأشعة الضوئية المختلفة فتتداخل الصفات المتنوعة في الحياة بعضها في بعض تداخلاً

---

(١) نفسه، ص ١٢٦.

(٢) انظر الصفحات ٨٠٨ - ٨١٢.

يجعل كل صفة منها عين الأخرى، فكأن الحياة بكاملها (علم) كما أنها (قدرة) في الوقت نفسه وهي (حكمة) و (رحمة) سواء بسواء"[1].

وتنفتح النافذة الثامنة والعشرون من (الكلمة) نفسها على مهرجان الخلق المنوع، المحكم، الجميل الذي تحكي عنه الآية الكريمة ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ (سورة الروم:٢٢). ونستمع إلى النورسي وهو يشير بكلتا يديه إلى "أركان الكون العظيمة" حيث نجد "إن إدارة وتنويراً في منتهى العظمة يكتنفانه من كل جوانبه ويفضيان به إلى غايات عظيمة وجليلة. وننظر إلى مجموع الكون كله، فإذا به يتجلى أمامنا وكأنه مملكة منّسقة الأرجاء، أو مدينة رائعة الجمال، أو قصر منيف باذخ، وإذا بنا أمام أنظمة دقيقة ترقى به لبلوغ حكم عالية وغايات سامية"[2].

وما يلبث أن يخلص إلى الدلالة النهائية لهذا المهرجان الجميل وهي الدلالة ذاتها التي أشار إليها وأكد عليها في عشرات المواقع من كلماته بل في مئاتها " فحيث إن كل أثر من الآثار البديعة الماثلة أمامنا في الكون وفي جميع المخلوقات هو كامل بديع بحد ذاته، وأن هذا الأثر البديع يشهد على فعل، والفعل يشهد على اسم، والاسم يشهد على صفة والصفة تشهد على شأن، والشأن يشهد على ذات. لذا فإن كلاً منها مثلما يشهد شهادة صادقة على صانع جليل واحد أحد واجب الوجود ويشير إلى أحديته. أي مثلما أن هناك شهادات وإشارات بعدد المخلوقات إلى التوحيد، فإن كلاً منها أيضاً مع

(١) نفسه، ص ٨١٣.

(٢) نفسه، ص ٨٢١.

مجموع الآثار والمخلوقات في الكون إنما هو معراج عظيم لمعرفة الله سبحانه، له من القوة ما للمخلوقات جميعاً.."[1].

ويقول في موضع آخر: "إن ما نشاهده في هذا الكون من الإجراءات الجليلة الضخمة أمثال تبدل المواسم، ومن التصرفات العظيمة أمثال تسيير النجوم، ومن التسخيرات المدهشة أمثال جعل الأرض مهاداً والشمس سراجاً، ومن التحولات الواسعة أمثال إحياء الأرض وتزيينها بعد جفافها وموتها، ليبين لنا بجلاء أن وراء الحجاب ربوبية جليلة عظيمة تحكم وتهيمن بسلطانها الجليل. فمثل هذه السلطنة الربانية تستدعي رعايا يليقون بها ومظاهر تناسبها. بينما ترى أن من هم أفضل المزايا وأجمعها من الرعايا والعباد قد اجتمعوا مؤقتاً منهوكين في مضيف الدنيا، والمضيف نفسه يملأ ويفرغ يومياً والرعايا لا يلبثون فيه إلا بمقدار أداء تجربة مهماتهم في ميدان الاختبار هذا. والميدان نفسه يتبدل كل ساعة. فالرعايا يقفون دقائق معدودة لرؤية ما في معارض سوق العالم من نماذج الآلاء الثمينة للخالق ذي الجلال، ومشاهدين - لأجل التجارة - بدائع صنعه سبحانه في هذا المعرض الهائل، ومن ثم يغيبون، والمعرض نفسه يتبدل ويتغير كل دقيقة! فمن يرحل فلا عودة له، والقابل راحل. فهذا الوضع يبين بوضوح.. إن وراء هذا المضيف الفاني، وخلف هذا الميدان المتغير وبعد هذا المعرض المتبدل، قصوراً دائمة تليق بالسلطنة السرمدية، ومساكن أبدية ذات جنان، وخزائن ملأى بالأصول الخالصة الراقية للنماذج التي نراها في الدنيا. لذا فالدأب والسعي هنا إنما هو للتطلع إلى ما هناك والاستخدام هنا لقبض الأجرة هناك.."[2].

---

(١) نفسه، ص ٨٠٢.

(٢) نفسه، ص ٧٦ - ٧٧ وانظر: الصفحات ١١١، ١١٨، ١٣٢ - ١٣٣، ١٣٤، ٢٠٩،

ويتساءل النورسي: "أمن الممكن لخالق ذي جلال أظهر سلطان ربوبيته بتدبير قانون الوجود ابتداء من الذرات وانتهاء بالمجرات، بغاية الحكمة والنظام وبمنتهى العدالة والميزان، أن لا يعامل بالإحسان من احتموا بتلك الربوبية وانقادوا لتلك الحكمة والعدالة، وأن لا يجازي أولئك الذين عصوا بكفرهم وطغيانهم تلك الحكمة والعدالة؟"(١).

إنه – إذن– الهدف المقصود الذي تؤول إليه وتنبثق عنه سائر الظواهر والموجودات والأشياء، وهي تقدم منفعة ما للإنسان المتفرد، أو تمنحه جمالاً.. الهدف الواحد الذي ينبيء دائماً عن الحكمة ذاتها، تلك التي تعكس إبداعية الله سبحانه في الكون، وكلماته التي مالها من نفاد وتسخيره هذا كله للإنسان الذي أريد له أن يصير سيد المخلوقات بإدراكه هذه الحكمة وتعامله معها عبر مفردات سعيه اليومي، وكأنه أبداً متحقق بالحضور المترع بالشكر والامتنان لأفضال الخالق العظيم التي لا تعد ولا تحصى.. إن الحياة – بتعبير النورسي– تظهر دائماً "تجلي الجمال الرباني" وتبرهن على أحديته المطلقة(٢).

في مطلع الكلمة الثانية والثلاثين، وفي ظلال الآية الكريمة ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ (سورة الأنبياء:٢٢)، يجري النورسي حواراً بين مشرك يبلغ به الضلال أن يدعي التملك الحقيقي لموجودات العالم، وبين

---

٣٢١ – ٣٢٢، ٧١٨ – ٧٢٢، ٧٢٣ – ٧٤٨، ٧٤٩ – ٧٧٩.

(١) نفسه، ص ٦٨.

(٢) يمكن إحالة القارئ إلى الشواهد التالية لإغناء تصوره عن معالجة النورسي لجماليات ومقاصد الخلق الكوني: المرجع نفسه، الصفحات ٧ – ٨، ١٠، ٣٣، ٦٠ – ٦٢، ٦٨ – ٦٩، ٧٦، ٨٧، ٩١، ١٨٠ – ١٨٤، ١٨٧ – ١٩٠، ٣٣٥، ٣٣٨ – ٣٣٩، ٣٤١ – ٣٤٦، ٧١٩ – ٧٢٢، ٧٨٢ – ٧٩٢، ٧٩٧ – ٨٠٢، ٨٠٥ – ٨١٠.

أصغر هذه الموجودات: الذرة، ثم الكرية الحمراء، ثم الخلية، ثم الجسم البشري، ثم النوع الإنساني. وعندما تسقط حججه مع هؤلاء جميعاً يتوجه إلى " البساط الزاهي المفروش على وجه الأرض، والحلة القشيبة المزينة التي ألبست.. ثم يتحول بعد إخفاقه إلى الكرة الأرضية فالشمس والنجوم. وليس ثمة في حواريته هذه إلا التأكيد على وحدانية الخلق وتفرد الخالق المبدع بالسلطان.

والنورسي وهو يلاحق ادعاءات الشرك في هذا الحوار، فيطمسها لا ينسى، كعادته دائماً، توظيف البعد الجمالي لإبداعية الخلق الإلهي، وتفردها، واحكامها، وأحديتها المطلقة في مواجهة كل ظنون الشرك وأوهامه التي لو أتيح لها التحقق لحظة واحدة، وحاشا لله، لآلت بالسماوات والأرض إلى التفكك والفوضى والفساد[1].

[٧]

ثمة – أخيراً– ما لا يفوت على عقل النورسي وهو يتعامل مع الكتلة الكونية.. مع الذرات والأشياء والموجودات والطبيعة والعالم والسماء.. مع القوانين التي تنظمها والسنن التي تسيرها والنواميس التي تضبطها والديكورات الباهرة التي تمنح تكويناتها وأشكالها وحركاتها وإيقاعاتها زينة وروعة وجمالاً.. لا يفوته أن الله سبحانه الذي يبدع هذا كله، ويرسم له خرائط المسير والمصير، لا يعجزه، جلت قدرته، أن يخرق النظام المحكم

---

(١) انظر بالتفصيل : الكلمات، ص ٧٩٨ – ٧١٧.

الجميل بمعجزة هنا وخارقة هناك، لأنه - سبحانه - يعلو على النظم والقوانين والسنن التي ينشئها وهي ليست سوى انعكاساً مرموقاً لمشيئته المطلقة. من ثم فإنه - سبحانه - ولأسباب ظاهرة وحكمة ملحوظة حيناً، مغيبة عن قصور القدرة البشرية ونسبية رؤيتها أحياناً، يخرق السنن والنواميس، ويجعل الإنسان والخلائق حاضرة أبداً في مواجهة قدرة لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء.

إن النورسي، وهو يناقش معجزة انشقاق القمر في الآية الكريمة: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ (سورة القمر:١-٢)، يقف بعض الوقت عند هذه المسألة[١]، والذي يهمنا منها، بقدر ما يتعلق الأمر بالموضوع الجمالي المعني بالجانب المادي من الوجود، إن النورسي، وهو يعالج الظاهرة من زاويتي التاريخ والعلم، يمنحنا، بشكل غير مباشر، تفسيراً لما قد يشهده العالم أحياناً، أو جوانب ومساحات منه منحسرة في الزمن والمكان، من تناقض أو اضطراب قد يطمسان على وجهها الجميل، وأن هذا لا يعدو أن يكون استثناء لحكمة يريدها الله سبحانه، لقاعدة أكثر امتداداً ودواماً، تجعل الجمال جبلة الخلق الكوني وروحه وقانونه.

إن القمر الذي ينشق للحظات في عمر الزمن الكوني، في مجابهة المعاندين والمشركين فيعتم أو تغيب أضواؤه، ما يلبث أن يلتئم لكي يعود إلى وظيفته المرسومة في علم الله سبحانه ولكي يبث النور على الأرض، ويشارك في مهرجان السماء الدنيا وزينتها!

---

(١) الكلمات، ص ٧٠٢ - ٧٠٦.

الفصل الثالث

دنيا الأحياء

[١]

يعقد النورسي مع دنيا النبات والحيوان علاقة حميمة، خطـوة في المـسيرة اللا نهائية للإبداع الإلهي في الخلق، وهي تنبض بالحياة، مضافة على التصميم المتقن والملمح الجميل.

والصلة بين خلائق هذه الدنيا والجمال لا تعبّر عن نفسها بصيغة واحـدة أو وجه متفرد، إنها صلة مركّبة ذات صيغ ووجوه شـتى، والنـورسي يعـرف كيف يتعامل معها ويوّظفها في الخطاب.

إن الفكرة المجرّدة قد لا تـصل إلى الطـرف الآخـر بالـسهولة المتوخّـاة، وهي حتى على افتراض وصولها - بعد اجتياز المسافات الذهنيـة المتطاولـة - فقد لا تحدث الأثر المطلوب، من ثم فإن النورسي يعرف كيف يكسوها عظـماً ولحماً، كيف يتحول في الوقت المناسب إلى التشخيص، إلى اسـتدعاء المنظـور الذي يملأ الحسّ والوجدان لكي يدعم مقولات العقل الخالص ويعين عـلى الوصول إلى الله.

[٢]

لنبدأ برحلة مسرعة في دنيا النبات قبل أن نـدلف إلى عـالم الحيـوان، وفي الحالين فإننا قبالة رجل يسيح في الطبيعة ويتعامل مـع خلائقهـا باللغـة التـي

تنقل إلى الحس البشري، بمفردات الخلق الجميل، تسابيح الورد والعشب والشجر والطيور والأنعام، وتسليمها وشهادتها.

إن عالم النبات يصير في (كلماته) صوتاً عذباً منغّماً يدلّ على كمال الذات الإلهية وإبداع الله سبحانه في الخلق.. يشير إلى عطاء الله الذي ما له من نفاد.. إلى البعث والتجدّد والإبداع.. يحكي بتناسبه المدهش عن حكمة الخلق ونظامه المحكم.. عن النبض الإيماني في النبتة وهي تشقّ الأرض وتطلّ على الدنيا باستحياء ثم ما تلبث أن تنمو وتسمق لكي تعجب الزرّاع وتغيظ الكفار.

وهو، فضلاً عن هذا كلّه، يضرب بدنيا النبات الأمثال ويقصّ الحكايات.. إنها الألفة الكونية التي ترصد الجمال في ساحات العالم من أقصاه إلى أقصاه.. تتجاوز المنظور المنفعي، وتمضي لكي تؤشر بمحبة عذبة إلى كل ما هو جميل في هذا العالم.

لن يتسع المجال لوقفة طويلة مع الشواهد والمعطيات فهي متشعّبة كثيفة متداخلة كغابات أفريقيا الخضراء، ولابدّ من الانتقاء.. وقفة هنا ولحظات هناك ننصت فيها للنورسي نفسه وهو يجعل هذه الوردة وتلك الشجرة.. هذا الغصن اليانع وتلك العريشة المحّملة بالثمار، تحكي بمفرداتها التي تنثّ جمالاً، كيف أنها، في منظومة الخلق وتسبيح الكائنات، تمارس وظيفتها المرسومة شاهدة على أنه "لا إله إلا الله".

وليس ثمة خيار آخر.. والانتقائية ها هنا قدر محتوم، وإلاّ فإن (الكلمات) وكل معطيات النورسي.. أعماله المتدفقة كالشلال، تنطوي على هذا التعاشق مع إبداعية الله في خلقه.. هذا التودّد للنبت والزهر والشجر..

استدعاءها جميعاً لكي تدلي بشهادتها الأخيرة.. إن كلمات النورسي حديقة مترعة خصباً وعطاءً.. غابة كثيفة من الأشجار والعرائش والجذوع والزهور والحشائش والثمار..

[٣]

في البدء تشهد "الموجودات السيّالة" كما يسمّيها النورسي، بوجودها وحياتها "على وجوب وجود الخالق سبحانه وتعالى، وعلى أحديّته".. وتشهد مرة أخرى "بزوالها وموتها أيضاً على وجود الخالق سبحانه وعلى أزليته وسرمدّيته".

"نعم، ان تجدّد المصنوعات الجميلة وتبدّل المخلوقات اللطيفة، ضمن الغروب والشروق وباختلاف الليل والنهار، وبتحوّل الشتاء والصيف، وتبدل العصور والدهور، كما أنها تشهد على وجود ذي جمال سرمدي، رفيع الدرجات دائم التجلّي، وعلى بقائه سبحانه ووحدته، فإن موت تلك المصنوعات وزوالها - بأسبابها الظاهرة - يبيّن تفاهة تلك الأسباب وعجزها وكونها ستاراً وحجاباً ليس إلاّ.."(١).

يمضي النورسي في متابعة "الدلالة" المحتومة بين الخلاّق ذي الجلال والكمال والجمال وبين سيّال الخلق الجميل، وكأنه يقرأ في كتاب الكون الكبير "هذا الذي تعلمنا آياته التكوينية الدالة على وجوده سبحانه وعلى وحدانيته" والذي يشهد كذلك "على جميع صفات الكمال والجمال والجلال للذات

(١) الكلمات: ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الأولى، دارسوزلر، اسطنبول - ١٩٩٢ م، ص ٣٤٢.

الجليلة، ويثبت – أيضاً – كمال ذاته الجليلة المبّرأة من كل نقص والمنزّهة عن كل قصور"[1]. وهو يضرب لذلك مثلاً: "إن النقوش المتقنة والتزيينات البديعة لقصر كامل رائع، تدل على ما وراءها من كمال الأفعال التامة لبنّاء ماهر خبير، وأن كمال تلك الأفعال وإتقانها ينطق بتكامل الأسماء لرتب وعناوين ذلك البناء الفاعل. وتكامل الأسماء والعناوين يفصح عن تكامل صفات لا تحصى لذلك الصانع من جهة صنعته وتكامل تلك الصفات وإبداع الصنعة يشهدان على تكامل قابليات ذلك الصانع واستعداداته الذاتية المسماة بالشؤون، وتكامل تلك الشؤون والقابليات الذاتية تدل على تكامل ماهية ذات الصانع، وهكذا الأمر في الصنعة المبدعة المبرأة من النقص في الآثار المشهودة في العالم والموجودات المنتظمة في الكون.."[2].

والنورسي يتابع في قراءته لمعجزة الخلق جملة أمور: النظام والموازنة، جنباً إلى جنب مع الزينة والجمال، بمعنى أنه يلحظ في وقت واحد معاً: الضرورة والجمال، وإن كان النظام والموازنة، بحدّ ذاتهما، ينطويان على بعد جماليّ مؤكد، بما يتضمنان من تناسب وتناظر مدهشين. وفي كل الأحوال فإن المعجزة، تدلّ في نهاية الأمر وبدئه على وحدانية الخالق وقدرته المطلقة "إن ما يبدو عياناً في جميع المصنوعات المبثوثة على صفحات الكون من مظاهر النظام والموازنة التامة، وما تتشكل فيه من صور الزينة والجمال، وما يشاهد من سهولة متناهية في انبعاثها إلى الوجود، وتملكها للحياة، وما هي عليه من تشابه بعضها للبعض الآخر في المظاهر والماهيات، فضلاً عن استجاباتها

(١) نفسه ص ٣٤٢.

(٢) نفسه ص ٣٤٢.

الفطرية الواحدة للأحداث الكونية، كل من هذه المظاهر والخصائص دليل واسع سعة الكون على الخالق القدير، وشهادة صادقة قاطعة على وحدانيته سبحانه وقدرته المطلقة"[1].

هذه الشهادة الدالة تنبثق عن القدرة اللا متناهية على "إيجاد مركبات منتظمة لا تعدّ ولا تحصى من عناصر جامدة بسيطة التركيب.. وكذا ما يشاهد من تمايز واضح وافتراق كامل أثناء تجدد الموجودات - بالتحليل والتركيب - رغم كونها في منتهى الاختلاط والامتزاج".. ويضرب النورسي على ذلك مثلاً من دنيا النبات: "تسنبل الحبوب المدفونة في جوف الأرض، ونموّ أصول الأشجار إلى نباتات مختلفة وأشجار متباينة، رغم الاختلاط والتشابك، وكذلك تميز المواد المختلفة الداخلة في النباتات والأشجار المتنوعة إلى أوراق زاهية وألوان جميلة وثمار لطيفة رغم الامتزاج الشديد بل حتى تمايز وتجزؤ المواد الغذائية الدقيقة الداخلة في حجيرات الجسم بحكمة كاملة وبميزان دقيق رغم الامتزاج والاختلاط.. "إنها القدرة والحكمة معاً ما يجعل" عالم الذرات "يشبه" مزرعة عظيمة هائلة تزرع فيها كل حين عوالم، وتحصد أخرى"[2].

يعود النورسي إلى عالم النبات أكثر من مرة لتأكيد الدلالة التي تجعل هذا العالم مرآة نقية تعكس بالصدق المطلوب كمال الإبداع الإلهي في الخلق وجمال رحمته جل في علاه: "النباتات والأشجار نفسها تنطق بلسان أوراقها وأزهارها وثمارها معلنة كمال صنعته سبحانه وجمال رحمته جل جلاله..

---

(١) نفسه ص ٧٨٩، وأنظر ص ٧٨٨.

(٢) نفسه ص ٧٨٩ - ٧٩٠.

الزهرة والثمرة كذلك، وهي كلمة واحدة من تلك الكلمات، تتكلم بلسان بذيراتها الدقيقة "مشيرة إلى" دقائق صنعته وكمال ربوبيته، لمن يحسن الرؤية من ذوي الإحساس والشعور"[1].

والنورسي يشترط – ابتداء – رؤية نافذة للوجود يمنحها الإحساس والشعور قدرة على الشهود، وإلاّ فهو العمى الذي تنطمس معه معالم الأشياء ودلالات الخلق، أو على الأقل، تداخل الألوان الذي لا يتميّز به المنظور.

إن دنيا النبات تمارس، على طريقتها الخاصة، وبكلماتها المتميزة، تسبيحاً وذكراً وهو يدعونا للإنصات إلى حفل التسبيح هذا "متمثلاً في كلام زهرة واحدة من بين أزهار العالم" وإلى الإصغاء إلى "إفادة سنبلة واحدة من بين سنابل الأرض لنزداد يقيناً كيف أن هذا كله يشهد شهادة صادقة على مصداقية التوحيد" حيث لا نملك أنفسنا التي تلفّها الحيرة والذهول من أن تهتف "يا سبحان الله! ما أجمل شهادة هذا على أحقية التوحيد". نعم.. يمضي النورسي بنا في الرحلة المدهشة، موغلاً أكثر فأكثر، متصنّتاً إلى النداء نفسه.. النداء المؤكد في كل انفلاق بذرة، واستواء ساق، واخضرار برعم، وتفتح وردة، وعبق ثمرة في مهرجان النبات الجميل "إنه واضح جلي كوضوح النبات نفسه، وجميل كذلك كجمال النبات نفسه، تلك التسبيحات التي يهمس بها كل نبات في إشراق تبسّمه، عند تفتح زهرة، ونضج ثمرة، وتسنبل سنبلة، لأنه بالثغر الباسم لكل زهرة، وباللسان الدقيق للسنبل المنتظم، وبكلمات البذور الموزونة، والحبوب المنسّقة، يظهر النظام الذي يدل على الحكمة.."[2].

---

(١) نفسه ص ٨٠٣.

(٢) نفسه ص ٨٠٣.

يتساءل، بحركة موحية من الجزئي إلى الكلّي، ومن المحدود إلى المطلق، ومن أعيان الخلق الإلهي في هذه النبتة أو تلك، إلى معجزة الخلق في مطلق عالم النبات على امتداده، وتدفقّه، وتقلّبه، وانبعاثه، وزواله وعودته كرة أخرى إلى الدفق والنماء والحياة، بالتناسب والتوازن نفسه، بالألوان المبهجة ذاتها، وبالخضرة الواعدة، والزهر والثمر، والتقلّب الأبدي بين الموت والحياة، والظل والنور "لئن استمعت إلى شهادة كهذه من زهرة واحدة فقط، وتمكنت من الإصغاء إلى الشهادة العظمى الصادرة من جميع الأزهار في جميع البساتين الربانية على سطح الأرض، واستمعت إلى ذلك الإعلان المدوّي الهائل الذي تعلنه تلك الأزهار في وجوب وجوده سبحانه ووحدانيته، فهل تبقى لديك ثمة غفلة أو أية شبهة، وان بقيت لديك غفلة فهل يمكن أن يطلق عليك بأنك إنسان ذو شعور سام متجاوب مع مشاعر الكون وأحاسيسه؟"[1]. ومرة أخرى، وثالثة ورابعة وعاشرة، ومن أجل ألاَ يفقد الإنسان قدرته على التجاوب مع النبض الكوني، وسبر غور الوجود الجميل.. من أجل أن يظل الحوار بين الإنسان والعالم نقّياً كالبلّور، نافذاً كألق الشمس.. من أجل أن يظل الخفقان الذي يصل، بلغته الخاصة، بكلماته التي يصعب وصفها، وصالاً أبدياً بين الإنسان المنبهر، والعالم الذي يتدفق بخضرته وانبعاثاته كالشلالات المتساقطة عند حافات الجبال والوديان.. من أجل ألاّ يرتكس الإنسان فينقطع ما بينه وبين العالم، ويفقد الرؤية والشهود.. من أجل أن يظل الصوت الذي يوصل النبض البشري إلى قلب الكتلة الكونية، وتسبيحات الأغصان والزهور والثمار إلى قلب الإنسان.. يدعونا النورسي ونحن نجتاز

---

(١) نفسه ص ٨٠٤.

معه دنيا النبات، إلى شحذ لغة الحوار وجعلها أكثر شفافية وأمضى قدرة على إدراك سرّ الخطاب الجميل، ولن يكون ذلك إلاّ بأن نكسر حواجز الإلف والاعتياد وأن نرجع كرة أخرى إلى براءة الطفولة "فهلا أمعنت النظر في منظر ملاعبة النسيم للأوراق برقة وبراءة كبراءة الطفولة النقية الرقيقة. وشاهد من فم الشجرة، كيف تنطق هذه الألسن وتفصح عن حالها، لسان الأوراق المخضرة بيد الكرم، ولسان الأزهار المتبسّمة بنشوة اللطف، ولسان الثمار الفرحة بحُلّي الرحمة.. كل منها يعبّر عن ذلك الميزان الدقيقة العادل الذي هو ضمن النظام البديع المحكم. وفي هذا الميزان الدقيق الذي يدل على العدل نقوش صنعة دقيقة بديعة، وزينة فائقة تضم مذاقات متنوعة، وروائح مختلفة طيبة لطيفة، تدل على الرحمة والإحسان. وفي تلك المذاقات اللطيفة بذورٌ ونوى هي بحدّ ذاتها معجزة من معجزات القدرة الإلهية. الا يدلّ ذلك بوضوح ويظهر بجلاء وجوب وجود خالق كريم ورحيم، محسن، منعم، مجمّل، مفضّل، واحد أحد. ويشهد كذلك على جمال رحمته سبحانه وكمال ربوبيته ؟ فإن استطعت أن تسمع هذا من لسان حال جميع الأشجار على سطح الأرض معاً، فستفهم، بل سترى، كم من الجواهر الجميلة النفيسة الرائعة في خزينة الآية الكريمة ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ.. ﴾(الحشر:٢٤).."[1].

ذلك إذن هو هدف الحوار المقصود.. أن نصعّد في مراقي الإبداع الإلهي في العالم، إن نعاين جمالياته الباهرة، أن نستمع للصوت الواحد الذي ينبض في كل بذرة وزهرة وثمرة، والذي يؤكد بلسان الحال والمقال معاً، توحّد

(١) الكلمات ص ٨٠٤.

الخالق سبحانه، وتفرّده، وقدرته اللامتناهية على الخلق والفعل والإبداع: "فيا أيها الغافل المسكين، ويا من يظن نفسه هملاً دون حساب، ويا من يغرق في نكران الجميل والكفران"! إن الكريم ذا الجمال يعرّف نفسه ويحبّبها إليك بهذا الحشد من الألسنة التي لا تعد ولا تحصى وإن أردت أن تصرف نفسك عن ذلك التعريف، فما عليك إلاّ أن تكمّم جميع هذه الأفواه وتسكت تلك الألسنة كافة، وأنى لك هذا؟"[1].

محاولة مستحيلة وأصوات الخلق الجميل تجأر بالتسبيح في كل مكان، وتتنادى بالشكر والعرفان من كل زاوية من معمار الكون المدهش الذي لا يكف عن الخفقان. إنك لن تستطيع أن تسكت الكون "فالكون جميعاً، والموجودات كافة ناطقة بالتوحيد، ودلائل التوحيد وأصداؤه شواهد عدل لا تنقطع ولا تنتهي أبداً"[2].

وتظل الحصيلة النهائية، أو دلالة الدلالات في المنظور النورسي لدنيا النبات، أن ظاهرة الانبعاث والزوال التي تتناوش هذه الدنيا إنما تؤكد المرة تلو المرة تلو المرة، على القدرة اللانهائية للإبداع الإلهي والبعث بعد الموت، وعلى تفرّد الذات الإلهية، في الوقت نفسه، بالبقاء، حيث يصير كل شيء إلى فناء، وحيث يهلك كل مخلوق ولا يتبقى – ثمة – الآه.. جل وعلا..

والنورسي يتساءل هنا، موجزاً الأمر كلّه بهذه الكلمات التي تنبض بالصدق والمحبة والإيمان: "ألا ترى أن ملأها – يعني الأرض- بكمال الحكمة والنظام البديع بمئات الألوف من أجناس النباتات.. وبعث الحياة

(١) نفسه ص ٨٠٥.

(٢) نفسه ص ٨٠٥، وأنظر ص ٨٠٦ – ٨٠٧.

البهيجة فيها، ثم إعفاؤها بالموت من وظائفها التي كانت تقوم بها، هذه الظاهرة تتوالى وتترى بانتظام دقيق. حتى إذا أفرغت الأرض منها بوشر مجدداً بملئها، ألا يعني هذا أن (البعث بعد الموت) حق لا ريب فيه؟ أو ليست كل هذه الظواهر شهادات صادقة ناطقة بمئات الآلاف من الألسنة، على القدير ذي الجلال، الحكيم ذي الكمال، وعلى وحدانيته سبحانه؟"[1].

[٤]

ودنيا النبات تعكس حضوراً مؤكداً للبعث والتجدّد، وتمهّد الطريق في مستوياته الذهنية والوجدانية، للتسليم بقيام الإنسان وخلوده.. "إن الموت والاندثار الذي يصيب في الخريف مخلوقات الربيع والصيف الجميلة، ليس فناءً نهائياً وإعداماً أبدياً، وإنما هو إعفاء من وظائفها بعد إكمالها وإيفائها، وتسريح منها، وهو إفساح مجال وتخلية مكان لما سيأتي في الربيع الجديد من مخلوقات جديدة.."[2]. ولطالما شبّه النورسي الربيع القادم بعد الشتاء، بالقيامة والحشر[3]، ولطالما تساءل "أمن الممكن للذي أظهر قدرته بإحياء الأرض بعد موتها وجفافها، وبعث أكثر من ثلاثمائة ألف نوع من أنواع المخلوقات، مع أن بعث كل نوع عجيب كأعجوبة بعث البشر.. أن لا يأتي بالقيامة؟ ولا يحدث الحشر؟ ولا يبعث البشر؟ أو يعجز عنه؟.. تعالى الله عن ذلك علواً

(١) نفسه ص ٨١١ – ٨١٢.
(٢) نفسه ص ٨١.
(٣) نفسه ص ٨٣.

كبيراً"[1]. ولطالما وضع قارئة قبالة المعجزة التـي يراهـا صـباح مـساء، لكنـه، لسبب أو آخر، ينصرف عنها " ها أنت ذا ترى بعينيك كم من نـماذج وأمثلـة وإمارات للحشر شبيهة بحشر الربيع، قد أبدعها البـاري سـبحانه وتعـالى في كل موسم، وفي كل عصر، حتى أن تبديل الليل والنهـار، وإنـشاء الـسحاب الثقال وإخفاءها من الجوّ، نماذج للحشر وإمـارات عليـه"[2]. ولطالمـا وضـع انبعاث الربيع ومشهد الحشر في كفّتيْ ميزان ودّل بأولاهما على الأخرى: "فما دام قلم القدرة الذي يكتب في فصل الربيع وفي صحيفة ضيّقة صـغيرة، مائـة ألف كتاب، كتابة متداخلة بلا خطأ ولا نصب ولا تعب كما هو واضـح جـلّي أمام أعيننا، (فإن) صاحب ذلك القلم قد تعهّد ووعد مائة ألف مرة، لأكتـبّن كتاباً أسهل من كتاب الربيع المكتوب أمامكم ولأكتبنه كتابة خالدة في مكـان أوسع وأرحب وأجمل من هذا المكان الضيّق المختلط المتداخل، فهو كتـاب لا يفنى أبداً، ولأجعلنكم تقرأونه بحرية وإعجاب.."[3]. وانظـروا: "إن إنـشاء جميع الأشجار والأوراق التي يزيد عددها ألف مرة على مجموع البشرية، دفعة واحدة في غضون بضعة أيام في الربيع، وبشكل كامل، وبالهيئـة نفـسها التـي كانت عليها في الربيع السابق، وكذلك إيجاد جميـع أزهـار الأشـجار وثمارهـا وأوراقها بسرعة خاطفة كما كانت في الربيع الماضي، وكذلك تنبّه البذيرات في آن واحد معاً وانكشافها وإحياؤها، وكذلك نشور الجثث المنتـصبة والهياكـل العظمية للأشجار وامتثالها فوراً لأمر البعـث بعـد المـوت.. لا يعطـي مثـالاً واحداً بل آلاف الأمثلة على إنشاء الأجساد البشرية فوراً يوم القيامة .. فإن لم

(١) نفسه ص ٨٥.

(٢) نفسه ص ٨٧.

(٣) نفسه ص ١١١.

تصدّق أن مجيء الحشر أمر قطعي كقطعية مجيء الربيع المقبل وحتميّته.. فلك أن تحاسبني حساباً عسيراً"[1].

لا إسراف ولا عبث والقدرة الإلهية تحيي في مطلع كل ربيع "جنائز الأشجار الميّتة وهياكلها المنتصبة، تحييها وهي لا تعد ولا تحصى.. وتجعلها علامة على البعث بعد الموت، فتحشر ثلاثمائة ألف نوع من طوائف النباتات وأمم الحيوانات وتنشرها، مظهرة بذلك مئات الألوف من نماذج الحشر والنشور.."[2]، ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(سورة الروم: ٥٠).

[٥]

وحكمة الخلق، ونظامه المحكم، يتجلّيان في دنيا النبات في سياقات الضرورة والمنفعة، أو التناسب والجمال على السواء "ألا ترى كيف يحافظ كل شيء مزهر ومثمر في الربيع الشاسع العظيم، وكيف يحافظ على جميع صحائف أعماله الخاصة به، وعلى جميع قوانين تركيبه ونماذج صوره، كتابة في عدد محدود من البذيرات. حتى إذا ما أقبل الربيع تنشر تلك الصحائف وفق حساب دقيق يناسبها فيخرج إلى الوجود ربيعاً هائلاً في غاية الانتظام والحكمة؟ ألا يبيّن هذا مدى نفوذ الحفظ والرقابة، ومدى قوّة إحاطتها الشاملة؟.."[3].

---

(١) نفسه ص ١٢٢.

(٢) نفسه ص ١٢٧، وأنظر ص ٤٤١، ٧١٨، ٧٣٤ - ٧٣٥.

(٣) الكلمات ص ٨٢.

ودائماً يبني النورسي من شاهده المؤكد هذا على حكمة الخلق وحبكة نظامه، استنتاجاً عقلياً وجدانياً هو بمثابة بديهة تخترق الحسّ البشري كالشهاب الثاقب بصيغة سؤال يكرّر نفسه المرة تلو المرة، مع كل انبعاث ربيع واخضرار برعم واستواء نبتة على سوقها " هل يعقل عدم الاحتفاظ بأعمال البشر التي لها ثمار مهمة في عالم الغيب وعالم الآخرة وعالم الأرواح، ولدى الربوبية المطلقة؟ هل يمكن إهمالها وعدم تدوينها؟ حاشا لله!"(١).

ويوغل النورسي في متابعة الحكمة، والنظام المتقن، وينحت من أجل تقريب تصوّراته اليقينية، إلى الذهن، مفردات وصوراً تضع قارئه قبالة التشكل المعجز وكأنه يراها بأم عينيه " أن البارئ المصوّر الجليل سبحانه يدرج فهارس وجود ما لا يحدّ من المخلوقات المنسّقة وتواريخ حياتها ودساتير أعمالها، يدرجها درجاً معنوياً، محافظاً عليها في بذور ونوى وأصول تلك المخلوقات، على الرغم من تبديلها في كل موسم، على صحيفة الأرض كافة، ولاسيما في الربيع. كما أنه سبحانه يدرجها بقلم القدر نفسه درجاً معنوياً بعد زوال تلك المخلوقات في ثمراتها وفي بذيراتها الدقيقة، حتى أنه سبحانه يكتب كل ما هو رطب ويابس من مخلوقات الربيع السابق في بذورها الممدودة الصلبة كتابة في غاية الإتقان ويحافظ عليها في منتهى الانتظام. حتى لكأن الربيع بمثابة زهرة واحدة وهي في منتهى التناسق والإبداع، تضعها يد الجميل الجليل على هامة الأرض ثم يقطفها منها"(٢).

---

(١) نفسه ص ٨٢.

(٢) نفسه ص ١٨٦، وأنظر ص ٣٣٨ - ٣٣٩، ٤٠٨ - ٤٠٩.

وثمة صور أخرى لتقريب الخطاب وجعل الحضور الإلهي الحكيم المهيمن المتقن، شاخصاً في ساحة العالم.. هذا شاهد آخر عليها: "ما دامت جميع المصنوعات المنشورة والمنثورة على وجه الأرض والتي تجمّلها وتزيّنها وتملؤها وتفرغها منها كل حين في قبضة قدرته سبحانه، فلابدّ أن أفرادها المنتظمة المتقنة - التي كل منها بمثابة مثال مصغّر للعالم وفهرس من أنواع الكائنات، وفهارس مصغّرة - تكون بالبداهة في قبضة ربوبيته سبحانه وإيجاده، وضمن إدارته وتربيته"[1]. بل إنه "يوّظف" خبرته الشخصية، ومرئّياته، للهدف نفسه. وكلنا يذكر الخواطر العذبة التي تدفقت على لسانه كالشعر وهو يعاين ثمار شجرة الدلب القريبة من غرفته[2]، ويذكر أيضاً الفكرة التي هيمنت عليه وهو يحصي ذات يوم عناقيد ساق نحيفة لعنب متسلّق[3].

هذا إلى أنه كثيراً ما "وظّف" المعطى العلمي لتأكيد الحقيقة ذاتها: "إن أنواع النبات وطوائف الحيوان، المنتشرة على الأرض هي أكثر من أربعمائة ألف نوع وطائفة - بل أن عد أفراد قسم من تلك الطوائف، خلال سنة واحدة، هو أكثر من عدد البشرية منذ آدم عليه السلام إلى قيام الساعة - وكأنها جيش هائل عظيم، فنرى أن كل نوع من هذه الجيوش له رزقه المختلف عن الآخر وصورته المتباينة، وأسلحته المتنوعة، وملابسه المتميزة، وتدريبه الخاص، وتسريحه المتفاوت من الخدمة. وتجري هذه كلّها في نظام متقن ووفق تقدير دقيق.. فمن ذا يستطيع أن يمدّ يد المداخلة في هذه الإدارة

(١) نفسه ص ٧٢٤.
(٢) انظر: المرجع السابق ص ٧٣٢ - ٧٣٤.
(٣) انظر: المرجع السابق ص ٧٣٣.

المعجزة من دون مالكها القدير الذي لا حدّ لقدرته، ولا حدود لعلمه ولا نهاية لحكمته؟!"[1].

[٦]

عموماً، فإن دنيا النبات، أسوة بعوالم الخلق الإلهي الذي لا تنفد كلماته، تصير، في المنظور الشامل .. شاهداً " إيمانياً " فذّاً ..

والمنظور يتغاير.. والنورسي يعرف كيف يحمل كاميرته وكيف يدور بها لالتقاط هذه الصورة أو تلك، وتجسيد هذه اللقطة أو تلك.. وهو في كل الأحوال يكتشف زاوية رؤية جديدة، ويقول لقارئه منبهراً: أنظر.. ها هي ذي دلالة أخرى من دلالات الإيمان الوضيء.

يلجأ بين الحين والحين إلى هندسة الأفكار وترتيب النتائج على الأسباب، كما في ساحة الرياضيات والحساب، ولكنه لا يتركها هكذا تعاني من برد التجريد ووحشته، ونأيه عن الحسّ والوجدان، إنه طالما كساها عظماً ولحماً.. طالما فجّر في جزيئاتها الدم وجعلها تنبض وتتشكل وتتجسد، وتقول بلسان الحال: "أنظر إلى معارض أقطار العالم التي هي مشهد من مشاهد الصنعة الإلهية، وتدبّر في ما تحمله النباتات والحيوانات على وجه الأرض من إعلانات ربانية، وأنصت إلى الداعين الأدلاّء إلى محاسن الربوبية وهم الأنبياء عليهم السلام والأولياء الصالحون، كيف أنهم يرشدون جميعاً الناس لمشاهدة كمال صنعة الصانع ذي الجلال بتشهيرهم صنعته البديعة، ويلفتون أنظارهم

---

(١) نفسه ص ٧٨٥.

إليها.. ثم أن هذه الموجودات العجيبة البديعة الدقيقة الرائعة المنتشرة في هـذا الكون تدل بوضوح - كدلالة ضوء النهار على وجود الشمس- على محاسـن الجمال المعنوي الذي لا مثيل له، وتريك كذلك لطائف الحسن الخفي الذي لا نظير له، وأن تجلّي ذلك الحسن الباهر المنزّه، وذلـك الجـمال الزاهـر يـشير إلى كنوز كثيرة خفية موجودة في الأسماء الحسنى، بل في كل أسم منها.."[1].

نعـم "إن الزهـرة الجميلـة، وهـي في غايـة الزينـة والزخرفـة، والثمـرة المنضدة، وهي في منتهى الإتقـان والإبـداع، المعلّقتـين بخـيط دقيـق في نهايـة أغصان يابسة، لاشك أنهما (لوحة إعلان) تجعل ذوي المـشاعر يقـرأون فيهـا محاسن صنعة الصانع المعجز الحكيم"[2]. وهو يتساءل: "هل يعقـل أن يحمّـل كل موجود وظائف جمّة - ولو كان بذرة - بثقل الشجرة، ويركب عليه حكما بعدد أزهارها، ويقلّده مصالح بعـدد ثمارهـا، ثـم يجعـل غايـة وجـود تلـك الوظائف والحكم والمصالح جميعهـا مجـرّد ذلـك الجـزء الـضئيل المتوجّـه إلى الدنيا. أي يجعل غاية الوجود هي البقاء في الدنيا فقط، الذي لا أهمية له حتى بمثقال حبة خردل؟ ولا يجعل تلك الوظائف والحكم والمصالح بـذوراً لعـالم المعنى، ولا مزرعة لعالم الآخرة، لتثمر غاياتها الحقيقية اللائقة بها؟ وهل يعقل أن تذهب جميع هذه المهرجانات الرائعة والاحتفالات العظيمة هباءً بلا غايـة وسدى بلا معنى وعبثاً بلا حكمة؟ أم هل يعقـل أن لا يوّجـه كلهـا إلى عـالم المعنى وعالم الآخرة، لتظهر غاياتها الأصيلة وأثمارها الجـديرة بهـا؟!" ثـم مـا يلبث أن يجيب: "كلا ثم كلا"[3].

---

(١) نفسه ص ٧١.

(٢) نفسه، هامش ١ ص ٧١، وانظر هامش ٣ من الصفحة نفسها.

(٣) نفسه ص ٨٩.

وهو يرسم لنا هذه المعادلة المؤثّرة: البذور مخبوءة تحت تراب الدنيا، إلاّ أن سنابلها تبرز في عالم المثال. فالإنسان - حسب استعداده - يزرع هنا ويحصد هناك في الآخرة[1].

وينادي، وهو يعاين مهرجان الخلق الجميل " تعال معي يا صاحبي لتمعن النظر في هذه الأشياء التي تزيّن الميادين والساحات، ففي كل زينة منها أمور تخبرنا عن ذلك المالك وتدلّنا عليه.. فإن شئت فأنظر إلى هذا الجسم الصغير جداً الذي لا يكاد الإنسان يعرف له وزناً: (البذور) قد صنع منه المولى أطوالاً من نسيج ملون بألوان زاهية، ومزركش بزخارف باهرة، ويخرج منه ما هو ألذّ من الحلويات المعسّلة، فلو لبس آلاف من أمثالنا تلك المنسوجات وأكل من تلك المأكولات لما نفدت.."[2].

ويصفع أدعياء الربوبية بهذه الحقيقة: "لو قيل لتفاحة ذات شعور: (أنت مصنوعتي أنا). فسترد عليه بلسان الحال قائلة: صه.. لو استطعت أن تكون على تركيب ما على سطح الأرض من تفاح، بل لو أصبحت متصرفاً فيما على الأرض من نباتات مثمرة من جنسنا، بل متصرفاً في هدايا الرحمن التي يجود بها من خزينة الرحمة، فأدّع آنذاك الربوبية عليّ"[3]. ثم هو يدعونا جميعاً إلى أن نعاين الأزهار والأثمار .. أن نتأمل بشر وجوهها، وحلاوة مطعوماتها، وجمالها الأخاذ، ونقوشها البديعة، وشذى عطرها الطيب.. إنها كلّها، يقول النورسي "بمثابة دعاة أدلاّء إلى ضيافة الربّ الكريم والمنعم الرحيم، وهي رسائل تعريف به بين يدي موائده المنصوبة على الأرض كافة.."[4].

---

(١) نفسه ص ٩٢.

(٢) نفسه ص ٣١٢ - ٣١٣، وأنظر ص ٣١٦ - ٣١٧.

(٣) نفسه ص ٣٤٠.

(٤) نفسه ص ٨٠٦.

[٧]

والنورسي، بعد هذا، يعرف كيف يوظف الحكاية والمثل في الساحة التي يتحرك فيها .. إنها أداته المفضلة التي طالما لجأ إليها لتخييل أفكاره وتجسيدها التي لا يرتاح أن تظل على تجريدها .. إنه يمارس خطاباً مشحوناً، وهذا ضد التجريد ابتداء .. إنك إذا أردت أن تؤثر في مستمعيك فعليك، من بين تقنيّات عديدة، أن تحكي لهم الحكايات وتضرب لهم الأمثال.

والنورسي يقولها بوضوح "إن القياسات التمثيلية أقوى من البرهان القاطع المنطقي وأكثر يقيناً منه"(١). ذلك أنها تضع (الآخر) أمام الأمر الواقع، بثقله وشهوده وأبعاده المنظورة.. بينما في ساحات المنطق قد يجد فرصة هنا وثغرة هناك للمناورة والالتفاف..

ينادي النورسي قارئه: "تأمل في هذه الزهرة، وهي كلمة من كلمات القدرة الإلهية، انها تنظر إلينا مبتسمة لنا لفترة قصيرة، ثم تختفي وراء ستار الفناء فهي كالكلمة التي نتفوه بها، التي تودع آلافُ من مثيلاتها في الآذان وتبقى معانيها بعدد العقول المنصتة لها، وتمضي بعد أن أدّت وظيفتها، وهي إفادة المعنى. فالزهرة أيضاً ترحل بعد أن تودع في ذاكرة كل من شاهدها صورتها الظاهرة، وبعد أن تودع في بذيراتها ماهيتها المعنوية، فكأن كل ذاكرة وكل بذرة، بمثابة صور فوتوغرافية لحفظ جمالها وصورتها وزينتها، ومحل إدامة بقائها. فلئن كان المصنوع وهو في أدنى مراتب الحياة يعامل مثل هذه المعاملة للبقاء فما بالك بالإنسان الذي هو في أسمى طبقات الحياة، والذي يملك روحاً باقية، ألا يكون مرتبطاً بالبقاء والخلود؟ ولئن كانت صورة

---

(١) نفسه ص ٧٣٦.

النبات المزهر المثمر، وقانون تركيبه الشبيه جزئياً بالروح، باقية ومحفوظة في بذيراتها بكل انتظام في خضم التقلبات الكثيرة، أفلا يفهم كم تكون روح الإنسان باقية، وكم تكون مشدودة مع الخلود، علماً أنها قانون أمري، وذات شعور نوراني، تملك ماهية راقية، وذات حياة، وخصائص جامعة شاملة، وقد ألبست وجوداً خارجياً"[1].

وهو في تفسيره الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ (سورة التكوير:١٠) يقول بأن "جميع أعمال الفرد ستنشر في الحشر مكتوبة على صحيفة. وحيث أن هذه المسألة عجيبة بذاتها فلا يرى العقل إليها سبيلاً. إلا أن السورة كما تشير إلى الحشر الربيعي، وكما أن للنقاط الأخرى نظائرها وأمثلتها، كذلك نظير نشر الصحف ومثالها واضح جلي. فلكل ثمرة وعشب وشجر أعمال ووظائف وعبودية وتسبيحات بالشكل الذي تظهر فيه الأسماء الإلهية الحسنى، فجميع هذه الأعمال مندرجة مع تاريخ حياته في بذوره ونواه كلها، وستظهر جميعها في ربيع آخر ومكان آخر. أي أنه كما يذكر بفصاحة بالغة أعمال أمهاته وأصوله بالشكل الظاهر، فإنه ينشر كذلك صحائف أعماله بنشر الأغصان وتفتح الأوراق والأثمار. نعم إن الذي يفعل هذا أمام أعيننا بكل حكمة وتدبير.. هو الذي يقول ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾.."[2].

وفي تأديبه للنفس الأمارة بالسوء، المغرمة بالفخر، المعجبة بالشهرة، الهائمة وراء المدح والثناء يصوغ هذا المثال " إن كانت بذيرة التين التي هي منشأ ألوف الثمرات، والساق النحيفة الصلبة التي تعلّقت بها مئات العناقيد.

---

(١) نفسه ص ٨٠.

(٢) الكلمات ص ١٢٥.

إن كانت هذه الثمرات والعناقيد من عمل تلك البذيرة والساق ومن مهارتهما لزم كل من يستفيد من تلك النتائج أن يبدي المدح ويظهر الثناء لهما ! إن كانت هذه الدعوى حقاً، فلربما يكون لك يا نفسي حق أيضاً في الفخر والغرور لما حمّلت من النعم. بينما أنت لا تستحقّين إلاّ الذّم لأنك لست كتلك البذيرة ولا كتلك الساق، وذلك لما تحملين من جزء اختياري فتنتقصين بفخرك وغرورك من قيمة تلك النعم وتبخسين حقّها.. نعم يا نفسي، أنت في جسمي تشبهين الطبيعة في العالم فأنتما قد خلقتما قابلين للخير مرجعين للشّر، أي أنتما لستما الفاعل ولا المصدر بل المنفعل ومحلّ الفعل.."[1].

ويضرب بشجرة الدلب الضخمة مثلاً على تجلّي الأحدية في الكائنات: "أن لهذه الشجرة ما لا يقل عن عشرة آلاف ثمرة، ولكل ثمرة ما لا يقل عن مئات من البذور المجنّحة، أي أن كل هذه الأثمار العشرة آلاف والمليون من البذور، تكون موضع الإيجاد والإتقان في آن واحد، بينما توجد العقدة الحياتية في البذرة الأصيلة لهذه الشجرة، وفي جذرها وفي جذعها، وهي شي جزئي ومشخّص من تجلي الإرادة الإلهية ونواة من الأمر الرباني، وبهذا التجلي الجزئي تتكون مركزية قوانين تشكيل الشجرة الموجودة في بداية كل غصن وداخل كل ثمرة وجنب كل بذرة، بحيث لا تدع شيئاً ناقصاً لأي جزء من أجزاء الشجرة ولا يمنعها مانع. ثم أن ذلك التجلي الواحد للإرادة الإلهية والأمر الرباني، لا ينتشر إلى كل مكان كانتشار الضياء والحرارة والهواء، لأنه لا يترك أثراً في تلك المسافات البعيدة للأماكن التي يذهب إليها، وفي المصنوعات المختلفة، بل لا يرى له أثر قط، إذ لو كان ذلك بالانتشار لبان

(١) نفسه ص ٢٤٨ - ٢٤٩.

الأثر، وإنما يكون جنب كل جزء من الأجزاء دون تجزئة ولا انتشار ولا تنافي تلك الأفعال الكلية أحديته وذاتيته..".

ويخلص إلى القول بأننا "ما دمنا نشاهد تجلياً جزئياً واحداً من تجلّيات صفة الإرادة للأحد الصمد، في مليون من الأمكنة، ويكون مبعث ملايين الأفعال دون داعٍ إلى وساطة، فلابدّ من لزوم اليقين بدرجة الشهود، بقدرة الذات الجليلة على التصرّف في شجرة الخلق، بجميع أجزائها وذرّاتها معاً، بتجلٍ من تجلّيات قدراته وإرادته سبحانه"[1].

وبكلمات قلائل، تتشكل في سياق مثلٍ منظور، يقطع النورسي بواحدة من الحقائق التي قد لا يقطع بها المنطق إلاّ بعد رحلة طويلة قد تصل وقد تضلّ الطريق: "إن تشكل أثمار الشجرة وأوراقها وتصويرها في آن واحد، بسهولة تامة وعلى أكمل وجه، من مركز واحد، بقانون أمريّ واحد، إنما هو مثال لإرادة جزء من حقيقة عظمى وطرف من قانون كلّي. فتلك الحقيقة وقانونها يثبتان إثباتاً قاطعاً أن تلك الكائنات الهائلة، كهذه الشجرة، يجري عليها قانون الحقيقة هذا، فهي كالشجرة، ميدان جولان سرّ الأحدية ذاك"[2]. وهذا يكفي ويمكن أن نحيل القارئ إلى شواهد أخرى[3].

(١) نفسه ص ٧٢٩ - ٧٣٠.

(٢) نفسه ص ٧٣٦.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٦، ٥٦، ١٣٢، ١٣٣، ١٩٠ - ١٩١، ٤٠٢.

[٨]

والإطار الذي يجمع هذه المفردات كافة.. النسغ الذي يغذّيها بالدم ويمنحها الحياة، أن النورسي يملك قدرة مدهشة على إقامة صداقة حميمة مع الكائنات. ها هنا في دنيا النبات يصير الرجل خلاّ للورد والشجر والجذوع والغصون والأوراق والثمار.. للخضرة الواعدة والانبعاث المتجدّد.. لكل شيء جميل في هذا العالم.

ومن قبل كان الشيخ عبد القادر الجيلي رحمه الله ورفاقه معلمو الخبرة الروحية في تاريخ الإسلام، يخرجون إلى البراري فتأنس إليهم وحوش الغاب وتتمسّح بأذيالهم الأسود والذئاب.. هنا، يصير النورسي، وهو يجوس دنيا النبات والحيوان، شجرة معرّشة تسبّح بحمد الله، وتلقي ظلالها الحانية التي يستروح بها الغادون والرائحون.. ونستمع إليه يقول: "اجعل الجبال كالحاكي لأذكارك، كما هي لسيدّنا داود عليه السلام، وشنّف سمعك بنغمات ذكر وتسبيح الأشجار والنباتات التي تخرج أصواتاً رقيقة عذبة بمجرّد مسّ النسيم لها وكأنها أوتار آلات صوتية، فبهذا الذكر العلوي تظهر الجبال لك ألوفاً من الألسنة الذاكرة المسبّحة، وتبرز أمامك في ماهية عجيبة من أعاجيب المخلوقات، وعندئذ تتزين معظم الطيور كأنها هدهد سليمان، لباس الصديق الحميم والأنيس الودود.."(١).

والنورسي يختصر الأمر كلّه بهذه الكلمات، ذلك أنه يعرف كيف يضع يديه على "السرّ" ويمسك "بالمفتاح": "إن جوهر الكون كلّه هو المحبة، وأن

(١) نفسه ص ٢٨٨.

حركة الموجودات بالمحبة، فقوانين الانجذاب والجذب والجاذبية التي تجري في الموجودات، إنما هي آتية من المحبة. وقد قال أحدهم:

كل ذرّات الوجود في نشوة المحبّة
الفلك نشوان.. النجوم والسماوات نشاوى
القمر والشمس والأرض نشوى
والعناصر والنباتات والأشجار نشاوى..

ترى ما مدى العشق والمحبة التي تليق بمن له في كل اسم من أسمائه ألف كنز وكنز من الإحساس والأنعام، ومن يسعد كل من نحبّهم، ومن هو منبع ألوف الكمالات، ومن هو مبعث ألوف طبقات الجمال، ومن هو مسمّى ألف أسم وأسم، وهو الجميل ذو الجلال والمحبوب ذو الكمال"[1].

[٩]

وبالمنظور الجمالي نفسه يتعامل النورسي مع عالم الحيوان: الإبداع الإلهي، الدلالة الإيمانية، الوظيفة الجمالية التي لا تدير ظهرها للمنفعة والضرورة، وإنما تتساوق معها وتتناغم فتصيران شيئاً واحداً.. وكعادته، فإن النورسي طالما ضرب بدنيا الحيوان الأمثال وقصّ الحكايات، تماماً كما كان يفعل وهو يجوس في عالم النبات.

سيكون من قبيل التكرار أن نستدعي الشواهد كلها، أو حتى أن ننتقي منها، فالمفردات هي نفسها هنا وهناك، والمنهج الاستطيقي هو المنهج.

---

(١) نفسه ص ٧٤٦.

يكفي أن نستمع إليه وهو يشير بحـرارة نكـاد نلمـس دفئهـا "أنظـر إلى معارض أقطار العالم التي هي مشهد من مشاهد الصنعة الإلهية، وتدبّر في مـا تحمله النباتات والحيوانات على وجه الأرض من إعلانـات ربّانيـة، وانـصت إلى الداعين الأدلاّء إلى محاسن الربوبية وهم الأنبياء عليهم السلام والأوليـاء الصالحون، كيف أنهم يرشدون جميعاً الناس لمشاهدة كمال صنعة الـصانع ذي الجلال بتشهيرهم صنعته البديعة، ويلفتون أنظارهم إليها"(١).

[١٠]

ويدعونا في مكان آخر إلى أن نلتفت معه إلى "هـذه الحيوانـات النحيفـة الضعيفة العاجزة كيف يسيل إلى أفواهها غـذاء لطيـف خـالص يتـدفق مـن مضخات (أثداء) متدلية فوق رؤوسها وحسبها أن تلصق أفواهها بها!"(٢).

ليس الإبداع الإلهي فحسب ولكنها الدلالة المركوزة في كل شبر في هـذا العالم، على القـدرة الـلا نهائيـة عـلى الخلـق والتكـوين: "إذا أمعنـا النظـر في الأشياء، ولاسيما الأحياء، نشاهدها وكأنها قد خرجت من يد الخلـق لتوّهـا، وبرزت إلى الوجود بروزاً فجائياً، فبينما ينبغي أن تكون الأشـياء المركبـة آنيـاً وعلى عجل، بسيطة التركيب ومشوّهة الشكل، ومن دون إتقان، نراها تخلـق في أتقن صنعة وأبدعها، هذا الإتقان والإبـداع الـذي يتطلـب مهـارة فائقـة. ونراها في أروع نقش وأدق صورة، هذه الروعة والدقة التـي تحتـاج إلى صـبر عظيم وزمن مديد. ونراها في زينة فاخرة وجمال أخّاذ، هذه الزينة وهذا الجمال

(١) نفسه ص ٧١.

(٢) نفسه ص ٣١٦ - ٣١٧.

اللذان يستدعيان آلات تجميل متنوعة ووسائل زينة كثيرة. فهذا الإتقان المعجز والصورة البديعة والهيأة المنسقة والإبداع الآني، كل منه يشهد على وجود الصانع الحكيم ويشير إلى وحدانية ربوبيته.."[1].

إن جميع الحيوانات "التي تملأ البرّ والبحر، والتي يرسل رزق كل منها برحمة واسعة، وتكسى بأثواب متنوعة، بحكمة تامة، وتجهز بحواس مختلفة.. تشير كل منها إلى ذلك القدير ذي الجلال، وتشهد على وحدانيته"[2].

وعينه دائماً على "الجمال" الذي يقود إلى الله ذي الجلال والكمال، فهو ليس جمالاً لذاته، ولكنه معبر إلى الحقيقة الإلهية، ودلالة عليها، حاضرة في أزمنة العالم وأمكنته. إنه الشاهد الذي لا يغيب لحظة لمن ألقى السمع وهو شهيد: "إن ما يبدو عياناً في جميع المصنوعات المبثوثة على صفحات الكون من مظاهر النظام والموازنة التامة، وما تتشكل فيه من صور الزينة والجمال، وما يشاهد من سهولة متناهية في انبعاثها إلى الوجود وتملكها للحياة، وما هي عليه من تشابه بعضها للبعض الآخر في المظاهر أو الماهيات، فضلاً عن استجاباتها الفطرية الواحدة.. كل من هذه المظاهر والخصائص دليل واسع سعة الكون على الخالق القدير، وشهادة صادقة قاطعة على وحدانيته سبحانه وقدراته المطلقة"[3].

لكأن النورسي بهذا يضع يديه على القيم الجمالية في الشكل والمضمون معاً وهو يوغل في إبداعية الخلق الإلهي. ها هنا يؤشر الرجل، فضلاً عن

(١) نفسه ص ٧٨٦.

(٢) نفسه ص ٧٨٧، وانظر ص ٧٨٨، ٧٩١، ٧٩٢.

(٣) نفسه ص ٧٨٩.

"صور الزينة والجمال"، على "النظام" و"الموازنة التامة" و"سهولة الانبعاث" و"التناظر في المظاهر أو الماهيات" و"الاستجابة الفطرية الواحدة" التي لا نشاز فيها.. وهي كلّها قيم تمارس دورها في معمار الخلق الجميل.

من أجل ذلك يجد النورسي في (الحيوانات) كما في (النباتات) "كلمات بليغة" تحكي عن "كمال صنعة الله سبحانه للوجود"[1]. ويدعونا إلى أن ننظر إلى الطيور.. الآن!! لنجد كيف "أن هديلها وتغريدها وزقزقتها ليس إلاّ من إنطاق خالق حكيم" و"مناجاة بعضها بعضاً وما تسكبه في لحونها من أشجان لّما يأخذ بالألباب"[2].

يقف النورسي بعض الوقت عند البلبل المعروف بعاشق الورود والأزهار.. فيرى ما لا نكاد نراه نحن.. إنها – مرة أخرى – الألفة الكونية التي يعقدها النورسي مع الأشياء والنباتات والحيوان، فيصير بالتمرين الطويل قديراً في نهاية الأمر على فهم لغتها وتلقّي خطابها الجميل.. فمن كان يتصوّر أن هذا الحيوان الصغير: البلبل، يستخدم في خمس وظائف لفاطره الجليل سبحانه؟

نعم!! إنه أوّلاً "مأمور ومكلّف – باسم القبائل الحيوانية – بإعلان شدّة العلاقة تجاه طوائف النباتات" وهو ثانياً " موظف بإعلان الفرح والسرور، والترحيب بالهدايا المرسلة من قبل الرزاق الكريم، حيث إنه خطيب رباني يسأل بتغريده أرزاق الحيوانات – ضيوف الرحمن – المحتاجين إلى الرزق"

---

(١) نفسه ص ٨٠٣.

(٢) نفسه ص ٨٠٧.

وهو ثالثاً مكلف "بإظهار حسن الاستقبال على رؤوس النباتات جميعاً، تعبيراً عن إرسال النباتات إمداداً لبني جنسه من الطير والحيوان" وهو رابعاً يكشف "عن شدة حاجة الحيوانات إلى النباتات التي تبلغ حدّ العشق تجاه الوجوه المليحة للنباتات وإعلانها على رؤوس الأشهاد" وهو أخيراً يقدم "ألطف تسبيح إلى ديوان رحمة مالك الملك ذي الجلال والإكرام في ألطف شوق ووجد، وفي ألطف وجه وهو الورد"(١).

ليس ضرورياً أن يعرف البلبل مهماته هذه أو يدرك مغزاها، إنما المهم "أن يغرّد بلغته ونحن نفهم هذه المعاني من نغماته الحزينة" وهي "ليست شكاوى نابعة من تألمات حيوانية، بل هي شكر وحمد وثناء تجاه العطايا الرحمانية.. وقس على ذلك بلابل النحل والعنكبوت والنمل والهوام والحيوانات الصغيرة.."(٢) .. كلها تعلن، بلغتها الخاصة، "رحمة الرحمن الرحيم على منابر الأشجار وعلى رؤوس الأشهاد، وتتغنى بها ولاسيما في موسم الصيف والربيع" وكلها تنثر "بتغريداتها الرقيقة وشدوها اللطيف، وتسبيحاتها المسجعة، الوجد والشوق.."(٣).

والنورسي يمضي بنا خطوة أخرى.. إنه يضعنا قبالة الوئام الكوني في دنيا النبات والحيوان والإنسان.. إزاء الخلق الذي ينبثق عن المصدر الواحد ويؤول إلى المصير الواحد..

---

(١) نفسه ص ٤٠٦.

(٢) نفسه ص ٤٠٧ .

(٣) نفسه ص ٤٠٨.

واللغة هي نفسها: أدعية تنطلق "بلسان استعدادات البذور، وبلسان احتياجات الحيوان، وبلسان اضطرار المستغيثين من بني الإنسان".. وتجيء استجابة الخالق سبحانه للأدعية جميعاً "غير محدودة، فعلية، بادية أمامنا، نشاهدها رأي العين"(١).

ومن أجل تعميق هذا الإحساس بالوئام الذي تنداح حافاته باتجاه آخر نقطة في الكون.. يطلب النورسي منا أن نشحذ حواسنا لتلّقي الخطاب الذي تبعث به الظواهر والعوالم والأشياء والموجودات والكائنات.. ما يسميّه "بنغمات الذكر والتسبيح" التي تمارسها "الأشجار والنباتات" "فتخرج أصواتاً رقيقة عذبة بمجّرد مسّ النسيم لها" وكأنها أوتار آلات صوتية "فبهذا الذكر العلوي، يقول النورسي" تظهر الجبال لك ألوفاً من الألسنة الذاكرة المسبحّة، وتبرز أمامك في ماهية عجيبة من أعاجيب المخلوقات"، وعندئذ تتزين معظم الطيور – كأنها هدهد سليمان – لباس الصديق الحميم والأنيس الودود"(٢).

وفي عالم الحيوان، كما في دنيا النبات، يصير الخلق المتجدّد، بما ينطوي عليه من قيم الإتقان والإبداع، دلالة حاضرة، مؤكدة على البعث والنشور.. ولطالما تساءل النورسي "أمن الممكن للذي أظهر قدرته، بإحياء الأرض الضخمة بعد موتها وجفافها، وبعث أكثر من ثلاثمائة ألف نوع من أنواع المخلوقات، مع أن بعث كل نوع عجيب كأعجوبة بعث البشر، والذي أظهر إحاطة علمه ضمن ذلك الأحياء بتمييزه كل كائن من بين ذلك الامتزاج

---

(١) نفسه ص ٧٨٥.

(٢) نفسه ص ٢٨٨.

والتشابك.. أن لا يأتي بالقيامة؟ ولا يحدث الحشر ولا يبعث البشر أو يعجز عنه؟.. تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً"[1].

إنه يحشر في بضعة أيام " في حشر الربيع، ويبعث أكثر من ثلاثمائة ألف نوع من أنواع النباتات والحيوانات من صغير وكبير، فيحيي جذور الأشجار والأعشاب ويعيد بعض الحيوانات بعينها كما يعيد أمثال بعضها الآخر.. فهل يصعب على من يقوم بمثل هذه الأعمال شيء.. أو لا يستطيع أن يحشر الإنسان بصيحة واحدة؟"[2].

والرؤية التوازنية التي هي إحدى خصائص الإسلام وملمحه الأصيل، تتبّدى ها هنا أيضاً في المنظور النورسي لعالم الحيوان.. هذا الكائن الذي أبدعه الله سبحانه، والذي ينطوي في اللحظة الواحدة على التصميم البديع والمنفعة الممنوحة للإنسان بسخاء.. وكلنا يذكر الآيات الكريمة التي تلّم الظاهرة من طرفيها: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة النحل:٥-٨).

يذكّرنا النورسي بالنحلة، تلك الحشرة السامة التي تمكننا - بإرادة الله - من جني العسل اللذيذ الذي فيه شفاء للناس، وبدودة القز التي تلبسنا أجمل الثياب والينها بما تحوكه رغم أنها بلا يد!![3].

---

(١) نفسه ص ٨٥.

(٢) نفسه ص ٨٥.

(٣) نفسه ص ٦٦.

نعم.. هذه هي الحقيقة الجليلة، يقول النورسي "فما دام سطح الأرض مائدة رحمانية أقيمت تكريماً للإنسان، فيمكن إذن أن تكون معظم الحيوانات والطيور التي تنتفع من هذه المائدة مسخّرة للإنسان، ضمن تصرفه وتحت خدمته. فالإنسان الذي استخدم النحل ودودة القز - تلكم الخدمة الصغار- وانتفع مما لديهم من إلهام إلهي، والذي استعمل الحمام الزاجل في بعض شؤونه وأعماله، واستنطق الببغاء وأمثاله من الطيور، فضمّ إلى الحضارة الإنسانية محاسن جديدة، هذا الإنسان يمكنه أن يستفيد إذاً كثيراً، إذا ما علم لسان الاستعداد الفطري للطيور، وقابليات الحيوانات الأخرى، حيث هي أنواع وطوائف كثيرة جداً، كما استفاد من الحيوانات الأليفة .."(١).

ولا ينسى النورسي لحظة أن هذا التسخير، وسوق كل من الكائنات "إلى طريق خاص يعين بميزان مخصّص" إنما يبيّن "مدى قدرة القائم بها ومدى حكمته، ومدى طاعة تلك المواد والحيوانات وانقيادها لأمره"(٢).

ومن خلال الرمز والمثل والحكاية، وهي تتشكل فنيّاً على يد النورسي، يوظف عالم الحيوان، كما النبات، للدلالة على مقاصد ومعان شتى:

إنه حيناً رمز الخلاص: "نعم إن الموت، بهذا الطلّسم القدسي، يلبس صورة فرس مسخّر .. بل يتخذ صورة براق يخرج الإنسان المؤمن من سجن الدنيا إلى روضة الجنان"(٣).. وحيناً، رمز التضاؤل والتعاسة والانحسار.. فلو أن الحياة، وهي حكمة خلق الكائنات، انحصرت في هذه الحياة الدنيا الفانية

(١) نفسه ص ٢٨٧.
(٢) نفسه ص ٧٢٠.
(٣) نفسه ص ٢٨.

القصيرة الناقصة المؤلمة، ولم تتصل بالأبدية والخلود "لظل الإنسان تعساً وشقياً وذليلاً وأحط من العصفور بعشرين درجة، بالنسبة لسعادة الحياة، مع أنه أسمى مخلوق وأكرم ذوي الحياة وأرفع من العصفور بعشرين درجة"(١). وحيناً ثالثاً، رمز الغفلة وضيق الأفق وضياع الحيلة: "فيا نفسي، أيتها السادرة في الغفلة، يا من ترين هذه الحياة حلوة لذيذة فتطلبين الدنيا وتنسين الآخرة هل تدرين بم تتشبّهين؟ إنك لتشبهين النعامة، تلك التي ترى الصيّاد فلا تستطيع الطيران، بل تقحم رأسها في الرمال تاركة جسمها الضخم في الخارج ظناً منها أن الصياد لا يراها. إلاّ أن الصياد يرى ولكنها هي وحدها التي أطبقت جفنيها تحت الرمال فلم تعد ترى"(٢). وحيناً رابعاً، رمز الضعف والعجز اللذين تتداركهما رحمة الله وعطاؤه الذي ما له من نفاد "أتريد الدليل؟! إن أضعف حيوان وأبلده ليرزق بأفضل رزق وأجوده (كالأسماك وديدان الفواكه..) ولكي تفهم أن وسيلة الرزق الحلال ليست الاقتدار والاختيار، بل هي العجز والضعف، يكفيك أن تعقد مقارنة بين الأسماك البليدة والثعالب!!"(٣).

وتصير الفئران السود والبيض رموزاً لتعاقب الليل والنهار.. والثعبان "فم القبر المفتوح إلى طريق البرزخ"، والحشرات المضرّة، رموزاً لمصائب الدنيا(٤).

---

(١) نفسه ص ١١٥.
(٢) نفسه ص ٩٢.
(٣) نفسه ص ٢٠.
(٤) نفسه ص ٣٦.

فهو يعرف إذن كيف يوظف الوجه الآخر للظاهرة.. الوجه القبيح لتعزيز الخطاب وتعميق ملامحه، متوسلاً إلى ذلك بتقنيات الرمز والمثل والحكاية، وسواها من صيغ الإبداع.

الفصل الرابع

الإنسان

[١]

يصعد بنا النورسي في "كلماته" باتجاه "الإنسان".. تأخذنا جمالياته إلى ابن آدم، سيدّ المخلوقات وأكرمها، والمقصود من إبداعية الخلق، فتفرش له المساحات العريضة، وتجول الكاميرا – مرة أخرى – لكي تضيء اللمسة الجميلة، وتأخذ اللقطة المبدعة، وتتناوب في خطوطها ومساحاتها وظلالها جماليات الحسّ والروح والوجدان.

ابتداءً، فإن الوظيفة الجمالية لهي إحدى مهمات الإنسان في العالم "فما دام ابن آدم يحكم في شتى جهات هذه الأرض.. ويتصرف في أغلب مخلوقاتها، مسخراً أكثر الأحياء له، جاعلاً أكثر المصنوعات تحوم حوله وفق مقاييسه وهواه، وحسب حاجاته الفطرية، وينظمها ويعرضها ويزيّنها، وينسّق الأنواع العجيبة منها في كل مكان، بحيث لا يلفت نظر الإنس والجن وحدهم، بل يلفت أيضاً نظر أهل السماوات والكون قاطبة، بل حتى نظر مالك الكون، فنال الإعجاب والتقدير والاستحسان، وأصبحت له – في هذه الجهة – أهمية عظيمة وقيمة عالية، فأظهر بما أوتي من علم ومهارة أنه هو المقصود من حكمة خلق الكائنات وأنه هو نتيجتها العظمى وثمرتها النفيسة، ولا غرو فهو خليفة الأرض وحيث أنه يعرض صنائع الخالق البديعة، وينظمها بشكل جميل جذاب في هذه الدنيا، فقد أجل عذاب عصيانه وكفره، وسمح له العيش في الدنيا وأمهل ليقوم بهذه المهمة بنجاح"[1].

---

(١) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الأولى،

إننا هنا بازاء غنى ملحوظ في المفردات ذات الدلالة الجمالية.. مثلاً: العرض، التزيين، التنسيق، الأنواع العجيبة، الإعجاب، التقدير، الاستحسان، الصنائع البديعة، التنظيم، الشكل الجميل الجذاب.

وهو – بالتأكيد – ليس جمالاً مقصوداً لذاته، إنما هي الأدوات التي يصعد بها الإنسان إلى أعلى.. دائماً إلى أعلى.. المكانة التي تليق بمقامه المتميّز.. وبدون المحاولة، أو بعيداً عنها، فإن الإنسان سيتعرض للسقوط.. وهو سقوط على كل المستويات، بما فيه المعطى الجمالي نفسه.

صحيح أن الإنسان، في المنظور النورسي، والإيماني عموماً، يمارس وظيفة جمالية، لكن هذه الوظيفة ليست نهاية المطاف، وإنما هي فرصة للتحقّق أكثر فأكثر بالسويّة المرتجاة للإنسان، والتي بها يصير الكائن المتفرّد الذي يسود الخلائق، ويتميز على العالمين، ويمسك بزمام المصير.. إنها المهمة الجمالية التي تنطوي في نهاية الأمر على بطانتها الروحية والتي تتجاوز الحسّ القريب إلى ما وراءه.. والشكل إلى المعنى والمغزى، والتعدّد إلى الوحدة، والموقوت الفاني إلى عالم الدوام والخلود.. يقول النورسي: "الإنسان ثمرة شجرة الخلقة، فهو كالثمرة أبعد شيء عن البذرة، وأجمع لخصائص الكل، وله نظر عام إلى الجميع، ويضم جهة وحدة الكل، فهو مخلوق يحمل نواة القلب، ووجهه متوجّه إلى الكثرة من المخلوقات، وإلى الفناء، وإلى الدنيا، ولكن العبادة التي هي حبل الوصال، أو نقطة اتصال بين المبدأ والمنتهى، تصرف وجه الإنسان من الفناء إلى البقاء، ومن الخلق إلى الحق، ومن الكثرة إلى الوحدانية، ومن المنتهى إلى المبدأ". ويتساءل النورسي: "لو أن ثمرة قيمة

دار سوزلر، اسطنبول – ١٩٩٢م، ص ١١١.

ذات إدراك أوشكت على أن تكوّن البذور، تباهت بجمالها ونظرت إلى أسفل منها من ذوي الأرواح، وألقت نفسها في أيديهم أو غفلت فسقطت".. ثم ما يلبث أن يجيب:

"لاشك أنها تتفتّت وتتلاشى في أيديهم، وتضيع كأية ثمرة اعتيادية، ولكن تلك الثمرة المدركة إن وجدت نقطة استنادها وتمكنت من التفكير في أنها ستكون وساطة لبقاء الشجرة وإظهار حقيقتها ودوامها عما تخبئ في نفسها من جهة الوحدة للشجرة، فإن البذرة الواحدة لتلك الثمرة الواحدة، تنال حقيقة كلية دائمة ضمن عمر باق دائم" ويخلص إلى القول بأن "الإنسان الذي تاه في كثرة المخلوقات، وغرق في الكائنات وأخذ حبّ الدنيا بلبّه حتى غرّه تبسّم الغانيات وسقط في أحضانها، لاشك أن هذا الإنسان يخسر خسراناً مبيناً، إذ يقع في الضلال والفناء والعدم، أي يعدم نفسه معنى. ولكن إذا ما رفع هذا الإنسان رأسه واستمع بقلب شهيد لدروس الإيمان من لسان القرآن، وتوجّه إلى الوحدانية، فإنه يستطيع أن يصعد بمعراج العبادة إلى عرش الكمالات والفضائل فيغدو إنساناً باقياً"[(١)].

إن الإنسان إذ ينطوي على "الصنعة الخارقة للخالق الصانع سبحانه" والذي هو "أرقى معجزة من معجزات قدرته وألطفها" والذي أراده الخالق سبحانه "مظهراً لجميع تجلّيات أسمائه الحسنى، وجعله مداراً لجميع نقوشه البديعة، جلّت عظمته، وصيّره مثالاً مصغراً ونموذجاً للكائنات بأسرها"[(٢)]، هذا الكائن، بدون ما إضاءة إيمانية، لن يظهر على حقيقته، ولسوف يظل

---

(١) نفسه ص ٤١٨.

(٢) نفسه ص ٣٤٩.

مطموساً عليه في العتمة، فلا يتكشف عن المعجزة، ولا يعكس التجليات الحسنى، أو النقوش البديعة للخلق الإلهي المدهش.

لكنه بقوة الإيمان، تتعيّن قيمته كإنسان، وتتألّق مكوناته الجمالية ويتحوّل، بعد إذ لم تكن له أهمية، إلى مرتبة أسمى المخلوقات قاطبة، "حيث يصبح أهلاً للخطاب الإلهي"(١).

ليس هذا فحسب، بل إن حياة الإنسان في المنظور النورسي، لهي فهرس لأسماء الله الحسنى.. ولائحة لمندرجات هذا العالم الكبير، وخريطة لهذا الكون الواسع.. وأحسن تقويم للكمالات المبثوثة في الموجودات والمنشورة على الأوقات والأزمان.. لكأن حياة الإنسان "نقطة مركزية لجمع أنواع التجليات الإلهية المتجلية على العالم أجمع"(٢).

وجمالية الوجود البشري لا تتحقق بأن يعمل الإنسان أشتاتاً وتفاريق، كل منها يصعّد في الطريق، منفرداً بذاته، غير ملتفت للأخريات..

لابدّ من التناغم والوفاق.. والصعود معاً إلى أعلى.. بقوة العبادة وقدرتها على المضيّ بالإنسان المتوحّد صوب الأهداف البعيدة .. فلو كان الإنسان مجرّد قلب فقط، يقول النورسي "لكان عليه أن يترك كل ما سواه، بل يترك حتى الأسماء والصفات ويرتبط قلبه بذاته سبحانه، ولكن للإنسان لطائف كثيرة جداً كالقلب، منها العقل والروح والسرّ، كل لطيفة منها مكلّفة بوظيفة ومأمورة للقيام بعمل خاص بها. فالإنسان الكامل.. يسوق جميع تلك اللطائف إلى مقصوده الأساس وهو عبادة الله، فيسوق القلب

(١) نفسه ص ٣٤٩.

(٢) نفسه ص ١٣٩.

كالقائد كل لطيفة منها ويوجهها نحو الحقيقة.. عند ذلك تسير الكثرة الكاثرة من اللطائف جنوداً في ركب عظيم وفي ميدان واسع فسيح.."[1].

[٢]

يتحرك النورسي في (كلماته)، وهو يتعامل مع جماليات الكائن البشري المتفرد، على مستويات ثلاثة: جماليات الصنعة ودلالتها، الجماليات الحسّية، وجماليات الروح والوجدان.

لنؤشر على كل واحد من هذه السياقات بما يسمح به المجال. وعلينا – ابتداء – أن نتذكر أن النورسي يرفض أشد ما يرفض الرؤية أحادية الجانب، وأن منظوره للظواهر والأشياء يدور دائماً لملاحقة كل جوانب الظاهرة، وخطوطها وخصائصها ودلالاتها. فمثلاً: "أن حسن الصنعة المتقنة في خلق الإنسان في أحسن تقويم، مثلما هو إشارة إلى الصانع سبحانه، فإن ما فيه من قابليات وقوى جامعة، تزول في مدة يسيرة، تشير إلى الحشر، حتى إذا ما لوحظ وجه واحد فقط بنظرتين، فإنه يدل على الصانع والحشر معاً"[2].

إن النورسي هنا يصوغ رؤية منهجية بمفردات واضحة تماماً: ملاحظة الوجه الواحد بنظرتين، ومن ثم فإنه وهو يلحظ حسن الصنعة المتقنة في خلق الإنسان، يلحظ أيضاً سرعة تفككها وتلاشيها.. لكي ما تلبث أن تمهد الطريق للحشر أو الانبعاث الجديد..

---

(١) نفسه ص ٥٨٢.

(٢) نفسه ص ٩٧.

لا دوام للحالة الجمالية، ولكنه الغياب والظهور معاً.. إبداعية الخالق، والزوال، والتجدّد..

ومرة أخرى "إذا لوحظت ماهية ما هو ظاهر في أغلب الأشياء من تنظيم الحكمة وتزيين العناية وتقدير العدالة ولطافة الرحمة، بَيّن أنها صادرة من يد القدرة لصانع حكيم كريم عادل رحيم، كذلك إذا لوحظت عظمة هذه الصفات الجليلة وقوّتها وطلاقتها، مع قصر حياة هذه الموجودات في هذه الدنيا، وزهادتها، فإن الآخرة تتبين من خلالها"(١).

ولطالما أكد النورسي على أن الإنسان "هو الثمرة النهائية لشجرة الخلقة، ومن المعلوم أن الثمرة هي أبعد أجزاء الشجرة وأجمعها وألطفها، لذا فالإنسان هو ثمرة العالم، وأجمع وأبدع مصنوعات القدرة الربانية" وهو مع تأكيده هذا لا ينسى، لحظة، أن هذه الثمرة، لكونها من مصنوعات القدرة الربانية، فإنها ستكون "أكثرها عجزاً وضعفاً ولطفاً"(٢).. وتلك هي ملاحظة الوجه الواحد بنظرتين وفق المنهج الذي يلزم النورسي نفسه به فيتجاوز بذلك التورّط بأسر الرؤية الأحادية التي تتعارض – ابتداء – مع الحقيقة الإيمانية، بل مع مطلق الحقيقة.

إن الكرم الإلهي الذي لا ينفد "يسبغ علينا نعمه وإحسانه فينوّرنا ويربيّنا ويجمّلنا" والمحصلة النهائية ليست عبثاً، وحاشا لله "فالإنسان عبد الإحسان، وهو يسأل القرب ممن يستحق العبادة والمحبة، ويطلب رؤيته، لذا فكل منا يسلك حسب استعداده بجاذبية تلك المحبة"(٣).

---

(١) نفسه ص ٩٧.

(٢) نفسه ص ٢٠٤.

(٣) نفسه ص ٣٨٤.

وبقوة الإيمان.. بجاذبية المحبة ونور المعرفة، يتحول الجسم البشري "الصغير الممدود المقيّد الذليل العاجز الضعيف، من جزء إلى كلّي، وإلى كل نوراني". وبالحياة التي يمنحه الله إياها يتحول إلى "الكلية الحقيقية.. ثم إلى الكلية النورانية السامية، فالنور المحيط الشامل"[1].

والخصيصة الجمالية يتحتم أن تنطوي على بعد أخلاقي، أو ضابط أخلاقي بعبارة أدق، خشية أن تقود الإنسان إلى العجب والغرور، ويبقى صمام الأمان الذي يحمي النفس البشرية من انزلاق كهذا، ألاّ تنسب الخير إلى ذاتها، وألاّ يرى الإنسان في نفسه إلاّ القصور والنقص والعجز والفقر، وأن يرى -في المقابل- كل محاسنه وكمالاته إحساناً من فاطره الجليل، ويتقبلها نعماً منه سبحانه، فيشكر عندئذ بدل الفخر، ويحمد بدل المدح والمباهاة[2]. هذا الإحساس الذي يغدو بمرور الوقت محفزاً لطلب الكمال بدلاً من الاستسلام للمستوى الواطئ والقعود في منتصف الطريق: "أن تعلم بأن كمالها في عدم كمالها، وقدرتها في عجزها، وغناها في فقرها"[3].

وما من ملمح في تكوين الإنسان، ما من خصيصة في صنعته، إلاّ ويجد فيها النورسي الدلالة المؤكدة على حكمة الله في الخلق، وإبداعه، وتوحّده: "تأمل في العلامات الفارقة الموجودة في وجه كل إنسان، تلك العلامات التي تميزه عن كل واحد من أبناء جنسه، وأمعن النظر فيما أودع فيه لحكمة بديعة من حواس ظاهرة ومشاعر باطنة، ألا يثبت ذلك أن هذا الوجه الصغير آية

(١) نفسه ص ٤١٤.
(٢) نفسه ص ٥٦٠.
(٣) نفسه ص ٥٦٠.

ساطعة للأحدية ؟ فكما أن كل وجه يدل - بمئات الدلائل - على وجود صانع حكيم، ويشهد على وحدانيته، فمجموع الأوجه أيضاً، وفي الأحياء كافة، تبيّن للبصيرة النافذة أنها آية كبرى جليلة للخالق الواحد الأحد"[1].

إن من يعجز عن الهيمنة على السماوات كلها - يقول النورسي- يعجز عن رسم خطوط سيماء الإنسان. أي أن من لم يكن رباً لما في السماوات والأرض لا يستطيع أن يخط ملامح وجه الإنسان ويضع عليه علاماته الفارقة[2].

يستشهد النورسي بالآيتين الكريمتين: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ...﴾ (سورة الزمر ٦٢ - ٦٣) ويخلص إلى القول: " فمن لا يستطيع رؤية هذه الحروف البارزة العظيمة المسطرة على صحيفة الكائنات، فما هو إلاّ واحد من ثلاثة: إما فاقد عقله، أو فاقد قلبه، أو آدمي الصورة أنعاميّ التطلعات"[3].

[٣]

إن هذا ينقلنا إلى المساحة التي يعطيها النورسي للجماليات الحسّية، وهي ليست وجهاً واحداً ولا حالة بسيطة، وإنما أوجه شتى وحالة مركبة لأنها تنطوي على طرفين: الإنسان والعالم، حيث تصير الحواس وسيلة أو جسراً للتواصل بينهما، وحيث تغدو صيغ التوظيف الحسّي -عبر هذا التواصل-

(١) نفسه ص ٧٨٤.

(٢) نفسه ص ٨٢٢.

(٣) نفسه ص ٨٢٢.

أداة للتحقّق بوتائر الجمال العليا، أو الانحدار صوب القبح والنفور .. فالعين – مثلاً– حاسّة " تطل الروح منها على هذا العالم، فإن لم تستعملها في سبيل الله، واستعملتها لأجل النفس والهوى، فإنها بمشاهدتها بعض المناظر الجميلة المؤقتة الزائلة، تصبح في درك الخادمة والسمسارة الدنيئة لإثارة شهوات النفس والهوى. ولكن إن بعتها إلى خالقها البصير واستعملتها فيما يرضيه، عندئذ تكون العين مطالعة لكتاب الكون الكبير هذا وقارئة له، ومشاهدة لمعجزات الصنعة الربانية في الوجود، وكأنها نحلة بين أزاهير الرحمة الإلهية في بستان الأرض، فتقطر من شهد العبرة والمعرفة والمحبة نور الشهادة إلى القلب المؤمن "(١).

وثمة مثل آخر من عالم الحسّ: الذوق.. فأنت إن لم تمحّض حاسة الذوق لفاطرها الحكيم واستعملتها لأجل المعدة والنفس "فحينئذ تهوي إلى درك بواب معمل المعدة وإصطبلها، فتهبط قيمتها. ولكن إن بعتها إلى الرزّاق الكريم فإنها ترقى إلى درجة ناظر ماهر لخزائن الرحمة الإلهية"(٢).

وما يلبث النورسي أن يرفع هذا النداء إلى حواس الإنسان: "يا أيتها العين! ابصري جيداً، أين السمسرة الدنيئة من الإمعان في المكتبة الإلهية؟ ويا أيها اللسان ذق بحلاوة فأين بواب المعمل والاصطبل من ناظر خزينة الرحمة الإلهية؟ فإن شئت – يا أخي – فقس بقية الأعضاء والحواس على هذا. وعندها تفهم أن المؤمن يكسب حقاً خاصية تليق بالجنّة، كما أن الكافر يكتسب ماهية توافق جهنم. فما جوزي كل منهما بهذا الجزاء العادل إلاّ لأن المؤمن يستعمل

---

(١) نفسه ص ٢٣ – ٢٤.

(٢) نفسه ص ٢٤.

بإيمانه أمانة خالقه سبحانه باسمه وضمن دائرة مرضاته، وأن الكافر يخون الأمانة فيستعملها لهواه ولنفسه الأمارة بالسوء"[1].

والنورسي، وهو يتعامل مع الجمال الحسّي، ووسائطه، لا ينسى أن يؤكد على الفارق النوعي الحاسم بينه في الإنسان وفي الخلائق الأدنى مرتبة.. وعلى المساحة الواسعة التي أتيحت له في الأولى، والمدى الضيّق الذي انحسر فيه في الثانية.. وهو يتساءل مثلاً: "أين عين الإنسان التي تميز جميع مراتب الحسن والجمال؟ وأين حاسته الذوقية التي تميز بين مختلف المطعومات بلذائذها الخاصة.. مما هي في الآلات الحيوانية البسيطة التي قد لا تنكشف إلاّ لحدّ مرتبتين أو ثلاث؟"[2] والسرّ في وفرة الأجهزة التي منحت للإنسان، وغناها، يكمن كما يرى النورسي "في أن حواس الإنسان ومشاعره قد اكتسبت قوة ونماء وانكشافاً وانبساطاً أكثر، لما يملك من الفكر والعقل، فقد تباين كثيراً مدى استقطاب حواسه نظراً لتباين وكثرة احتياجاته". وبسبب من "كثرة وظائفه الفطرية فقد انفرجت أجهزته وتوسّعت". وهذه القدرات المضافة لم تعط الإنسان عبثاً، وإنما من أجل "أن يفي بوظائفه المتطلعة إلى مقاصد لا نهاية لها.. وأن يرى بنظره الواسع تسبيحات الموجودات.. وأن يعاين معجزات القدرة الربانية في هذه المصنوعات فيتفكر فيها ويتأمل وينظر إليها نظرة العبرة والإعجاب"[3].

(١) نفسه ص ٢٤.

(٢) نفسه ص ٣٦٦.

(٣) نفسه ص ٣٦٧.

والحواس لا تعمل في الفراغ.. ولابدّ لها من موضوع جميل تنصبّ عليه ونتعامل معه.. لقد وهبنا الله سبحانه حياة حساسة، يقول النورسي، فهي كالمعدة تطلب رزقاً لها، ومن أجل ذلك وضع أمام حواسنا من عين وأذن - وهي كالأيدي - مائدة نعمة واسعة سعة سطح الأرض(1).

والمسألة في بدئها ومنتهاها، وهي هنا في دائرة الحسّ كما هي هناك في مجالات العقل والقلب والروح والوجدان: منحة الألوهية الجليلة، والرحمة الجميلة، والربوبية الكبيرة، والرأفة الكريمة، والقدرة العظيمة، والحكمة اللطيفة .. "لقد زين الله سبحانه هذا الإنسان الصغير بحواس ومشاعر كثيرة جداً، وجمله بجوارح وأجهزة وأعضاء مختلفة عديدة، ليشعره طبقات رحمته الواسعة، ويذيقه أنواع آلائه التي لا تعد، ويعرّفه أقسام إحساناته التي لا تحصى، ويطلعه عبر تلك الأجهزة والأعضاء الكثيرة على أنواع تجلّياته التي لا تحدّ لألف اسم واسم من أسمائه الحسنى، ويحبّبها إليه، ويجعله يحسن تقديرها حق قدرها"(2).

والنورسي يرى كيف أن لكل عضو من تلك الأعضاء الكثيرة ولكل جهاز وآلة منها وظائفها المتنوعة، وعباداتها المتباينة، كما أن لها لذائذها وآلامها. ثم يضرب مثلاً بالعين والأذن والشم والذوق. فالعين " تشاهد الجمال في الصور، وترى معجزات القدرة الإلهية الجميلة في عالم الشهود، فتؤدي وظيفتها بتقديم الشكر لله من خلال نظرتها ذات العبرة. ولا يخفى على أحد مدى ما في الرؤية من لذة وما يحصل من زوالها من ألم.. والأذن

---

(1) نفسه ص ٤١٤.

(2) نفسه ص ٧٧٤.

تشعر بلطائف الرحمة الإلهية السارية في عالم المسموعات، بسمعها أنواع الأصوات ونغماتها اللطيفة المختلفة.. وحاسة الشم تشعر بلطائف الرحمة الإلهية الفوّاحة من شذى أنواع العطور والروائح .. وحاسة الذوق تؤدي وظيفتها وتقدم شكرها المعنوي بأنماط شتى من خلال إدراكها مذاقات أنواع الأطعمة ولذائذها"[1].

وهكذا "فلكل جهاز من أجهزة الإنسان ولكل حاسة وجارحة.. وظائفها المختلفة ولذائذها المتنوعة الخاصة بها، ومما لا ريب فيه أن الخالق الحكيم الذي سخّر هذه الأجهزة لتلك الوظائف سيجزي كلا منها ما يلائمها ويستحقها من جزاء"[2].

وهكذا أيضاً، فإن التعامل الحسّي مع معطيات العالم وجمالياته، كما أنه يشبع في الكينونة البشرية حاجاتها الأساسية المركوزة في جبلّتها، فإنه يضعها في الوقت نفسه قبالة خيار حرّ في صيغ هذا التعامل وأنماطه، بل حتى في درجاته.. وسيترتّب على هذا، وفق نواميس الحق والعدل الإلهيين، الجزاء المناسب تماماً لجنس العمل، في الأرض وفي السماء.. في الحياة الدنيا وفي الآخرة على السواء.

وطالما أشار النورسي إلى فريقين من الناس: أهل الإيمان "الذين يتتلمذون على مائدة القرآن الكريم الذي يفسّر آيات كتاب الكون" وأهل "الكفر والطغيان الصمّ البكم الضالون الذين اتبعوا أهواءهم والشيطان، فما

(١) نفسه ص ٧٧٤.

(٢) نفسه ص ٧٧٤.

عرفوا من الحياة إلاّ ظاهرها، فهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً "[1]. وطالما أشار إلى نمطين أو طبقتين من الحواس "ظاهرة وباطنة"[2] وأن المؤمن الحق هو الذي يستنفر النمطين معاً في تعامله مع الكون والعالم والحياة، من أجل الإيغال أكثر في اكتشاف جمالياتها، والتقرّب أكثر إلى الله جلّ في علاه.. من خلال ابداعيته المدهشة في الكون والخلائق "نعم، إن الإنسان لم يوهب راس مال العمر، ولم يودع فيه أجهزة إنسانية راقية إلاّ ليؤهله ذلك على تأدية الوظائف الجليلة"[3] ويتساءل النورسي:

"أتحسبون أن مهمة حياتكم محصورة في تلبية متطلبات النفس الأمارة بالسوء ورعايتها بوسائل الحضارة إشباعاً لشهوة البطن والفرج؟ أم تظنون أن الغاية من درج ما أودع فيكم من لطائف معنوية رقيقة، وآلات وأعضاء حساسة، وجوارح وأجهزة بديعة، ومشاعر وحواس متحسّسة، إنما هي لمجرد استعمالها لإشباع حاجات سفلية لرغبات النفس الدنيئة في هذه الحياة الفانية ؟" ثم ما يلبث أن يجيب: "كلا، بل أن خلق تلك اللطائف والحواس والمشاعر في وجودكم وإدراجها في فطرتكم إنما يستند إلى أساسيين اثنين: أولهما أن تجعلكم تستشعرون بالشكر تجاه كل نوع من أنواع النعم التي أسبغها عليكم المنعم سبحانه. أي عليكم الشعور بها والقيام بشكره تعالى وعبادته. وثانيهما أن تجعلكم تعرفون أقسام تجليات الأسماء الحسنى التي تعمّ الوجود كلّه، معرفتها وتذوقها فرداً فرداً. أي عليكم الإيمان بتلك الأسماء

(١) نفسه ص ١٣٣.

(٢) نفسه ص ١٣٤.

(٣) نفسه ص ١٣٦.

ومعرفتها معرفة ذوقية خالصة. وعلى هذين الأساسيين تنمو الكمالات الإنسانية وبهما يغدو الإنسان إنساناً حقاً"[1].

[٤]

بعد جماليات الصنعة والحسّ ودلالاتهما، تجيء جماليات الروح والنفس والوجدان.. حيث فرش النورسي المساحات الواسعة في (كلماته) لهذا البعد الذي يتمثل فيه جوهر الجمال الإنساني وبلّوره المصطفى.. "السعيد يبصر الحقيقة، والحقيقة بذاتها جميلة"[2].

ويرسم النورسي مدرجاً يصعّد فيه عشاق الجمال الربّاني في الوجود وصولاً إلى "جمال الفاطر الجليل والصانع الجميل".. خطوة خطوة، ودرجة درجة.. والبداية دائماً هناك: التعامل بمحبة وشغف وانبهار مع "الآثار الربانية المبثوثة في الكون".. ثم تبدأ رحلة الصعود في المراقي.

أولاً: بمشاهدتهم تلك الآثار وجدوا أنفسهم في مقام المشاهدين محاسن عظمة الربوبية، بمعاملة غيابية، فأدوا وظيفة التكبير والتسبيح قائلين: الله أكبر.

ثانياً: وبظهورهم في مقام الدعاة والأدلاّء إلى بدائع صنائعه سبحانه وآثاره الساطعة التي هي جلوات أسمائه الحسنى، أدوا وظيفة التقديس والتمجيد بقولهم: سبحان الله والحمد لله.

---

(١) نفسه ص ١٣٦ – ١٣٧ وينظر: المرجع نفسه ص ٢٢٥.

(٢) نفسه ص ٣٥.

ثالثاً: وفي مقام إدراك النعم المدخرة في خزائن الرحمة الإلهيـة، وتـذّوقها بحواس ظاهرة وباطنة، شرعوا بوظيفة الشكر والحمد.

رابعاً: وفي مقام معرفة جواهر كنـوز الأسـماء الحـسنى وتقـديرها حـق قدرها بموازين الأجهزة المعنوية المودعة فيهم، بدأوا بوظيفة التنزيه والثناء.

خامساً: وفي مقام مطالعة الرسائل الربانية المسطرة بقلم قدرته تعالى على صحيفة القدر، باشروا بوظيفة التفكر والإعجاب والاستحسان.

سادساً: وفي مقام التنزيه بإمتاع النظر إلى دقة اللطـف في خلـق الأشـياء ودقة الجمال في إتقانها، دخلوا وظيفة المحبة والشوق إلى جمال الفـاطر الجليـل والصانع الجميل"(١).

إن جميع ما في الوجود والحياة يبدو – في الرؤية النورسية – وكأنـه مرايـا شبه شفافة لإظهار جمال القدوس الجليل الذي تحيط صفاته بكل شيء .. وما على الإنسان إذا أراد فعلاً أن يتمحّض لهذا الجمال، إلاّ أن يتجرّد عـن قيـوده، أن يتحرّر منها، وأن يقطع المراتب الطوال، ويعلـو، مـستمداً مـن قـوة قلبـه، وعلوّ عقله، القدرة على التجاوز والصعود(٢).

إن الإنسان " محبوس في المادة " فإذا أراد الاقتراب فإن عليه أن " يتجرد عن كثير جداً من القيود " وأن يمـضي " عـبر مراتـب كليـة كثـيرة جـداً "(٣). ولابدّ أنه سيصل ما دام قد أخلص النية وشمرّ عن ساعد الجد.

---

(١) نفسه ص ١٣٤.

(٢) ينظر: المرجع نفسه ص ٢١١ – ٢١٤.

(٣) نفسه ص ٢١٧.

المفتاح دائماً في المجاهدة التي تخلص نيتّها لله، وحينذاك يمكن أن " تولّد قراءة آية واحدة، أو ذكر معين، شفافية في الروح - كالزجاج - تستطيع أن تستوعب ثواباً نورانياً كالسماوات الواسعة"[1].

وطالما شبّه النورسي الحياة الدنيا بمهرجان مترع باللذائذ الحسية والروحية، ودعا الإنسان إلى المشاركة في الاحتفال الكبير والتواصل مع بهجته ولذائذه ووعوده: "الآلاء المختلفة والنعم المتنوعة التي لا تعد ولا تحصى، والمبثوثة في ذلك العيد البهيج، والمعروضة في ذلك المهرجان العظيم"[2]. ومع ذلك فهذا ليس سوى أحد وجهي الحقيقة. والنورسي دائماً يمضي للبحث عن الوجه الآخر، وتأكيده، وجعله حاضراً في الحسّ والعقل والروح والوجدان. وهكذا فإن " الدنيا مع جميع مباهجها في حكم سجن ضيّق بالنسبة لسعة الآخرة وجمالها "ومن ثم يصير" الخروج من سجن الدنيا والنجاة من ضيقها إلى بستان الجنان الأخروية، والانتقال من منغّصات الحياة المادية إلى عالم الراحة والطمأنينة، وطيران الأرواح، والانسلاخ من ضجيج المخلوقات وصخبها إلى الحضرة الربانية الهادئة المطمئنة "يصير هذا كله" سياحة بل سعادة مطلوبة بألف فداء وفداء"[3].

والنورسي، من أجل تحرير الإنسان من التعلّق بالأسباب، هذه التي تجرح دائماً "قلب الإنسان المسكين" بسبب تآكلها ودمارها .. يطلب منه أن يردّ عشقه للجمال إلى بارئه الحقيقي، وأن يحبّ الأشياء الجميلة باسمه، دون خوف أو قلق من التآكل والضياع .. إنه سبحانه"

---

(١) نفسه ص ٤٠٠.

(٢) نفسه ص ٢٢٢.

(٣) نفسه ص ٢٢٤.

صاحب كـمال وجمـال لا نهايـة لهـما.. والتعلّـق بـه، والتـشبث برحمتـه، يعصمان الإنسان من الهم والحزن والخوف. ومن ثم يجأر النورسي بهذا النداء: "يا نفسي.. ينبغي ألاّ تصرفي المحبة مباشرة إلى الكائنات، وإلا انقلبت المحبة، إلى نقمة أليمة بعد أن كانت نعمة لذيذة.. يا نفسيّ إن كنـت تعقلـين فـاجمعي إذن جميع أنواع تلك المحبة وسلّميها إلى صاحبها الحقيقـي وانجـي مـن هـذه البلايا"[1].

فهو – إذن– الاستمداد من مصدر الجمال الدائم الـذي لا يتنـاقص ولا يزول.. والتعامل مع النبع الذي تفيض منه كل القيم الجماليـة في هـذا العـالم. كما أنه يطلب من الإنسان، وهو يتعامل مع جماليات الأنثى، أن يفك ارتباطـه "بالجمال الظاهري السريع الـزوال" وأن يمحـض محبّتـه للجـمال "الـذي لا يزول ويزداد تألّقاً يوماً بعد يوم، وهو جمال الأخلاق والسيرة الطيبة المنغـرزة في أنوثة المرأة ورقتها". إذ أن أحلى ما فيها من جمال وأسـماه هـو "في شـفقتها الخالصة النورانية. فجمال الشفقة وحسن السيرة يدومان ويـزدادان إلى نهايـة العمر، وبمحبتهما تصان حقوق هذه المخلوقة اللطيفة.. وألاّ تفقد حقوقها في وقت هي أحوج ما تكون إليها بزوال الجمال الظاهري"[2].

[٥]

وقد ينطوي الجمال في المنظـور النـورسي عـلى بعـده الأخلاقـي.. بعـده الإنساني.. ولا ينسلخ عـنهما كـما هـو الحـال في المعطيـات الغربيـة عـلى مـرّ

(١) نفسه ص ٤١٢.
(٢) نفسه ص ٧٦٥ وينظر: المرجع نفسه ص ٧٧١.

العصور، حيث يصير الجمال البشري وسيلة حسّية صرفة لتحقيق اللذة، أو أداة منفعية خالصة لتحقيق المصلحة.

وإذا كان النورسي يرفض الأخذ بالمنهج الأحادي، أو الرؤية المحدودة، في التعامل مع الظواهر والأشياء، فإنه هنا في تقويمه لجماليات الإنسان، لا ينسى أن يدير المنظور في الاتجاهات كافة، لكي يبيّن أن الأمر ليس سواء، وأن الإنسان نفسه، لهذا السبب أو ذاك، قد يتنازل عن مواقع الجمال العالي باتجاه التنافر والقبح والدمامة، وأن ثمة حالات عديدة يتقلب فيها الإنسان بين القطبين بسبب من طبيعة ممارساته وصيغ تعامله مع الحقائق والموجودات والظواهر والأشياء.

ويضرب النورسي على ذلك مثلاً برجل مبارك يملك عقلاً رشيداً، فهو يقطع الطريق إلى هدفه دون أن يعاني الضيق كأخيه "ذلك أنه لا يفكر إلاّ في الأشياء الجميلة - لما له من جمال الخلق - ولا يأخذ بعنان الخيال إلاّ بما هو جميل ولطيف.. إنه يعرف النظام، ويعمل بمقتضى الولاء والاتباع.. فيمضي منطلقاً مستظلاً بالأمان والاستقرار. وهكذا مضى حتى وجد بستاناً فيه أزهار جميلة وفواكه لطيفة مع ثمة جثث حيوانات وأشياء منتنة مبعثرة هنا وهناك بسبب إهمال النظافة. كان أخوه الشقي قد دخل - من قبل - في مثل هذا البستان أيضاً غير أنه انشغل بمشاهدة الجيف الميتة وإنعام النظر فيها مما أشعره بالغثيان والدوار، فغادره دون أن يأخذ قسطاً من الراحة لمواصلة السير.. أما هذا الأخ فعمل بقاعدة (انظر إلى الأحسن من كل شيء) فقد أهمل الجيف، ولم يلتفت إليها مطلقاً.. وبعدما استراح مضى إلى سبيله"[1].

---

(١) نفسه ص ٣٣.

والمحك دائماً هو الإيمان والكفر.. الإيمان الذي يسمو بالإنسان إلى أعلى عليين "فيكتسب بذلك قيمة تجعله لائقاً بالجنة، بينما يتردى بظلمة الكفر أسفل سافلين، فيكون في وضع يؤهله لنار جهنم"[1]. ويزيد النورسي المسألة إيضاحاً فيقول "إن الإيمان يربط الإنسان بصانعه الجليل.. والإيمان انتساب، لذا يكتسب الإنسان بالإيمان قيمة سامية من حيث تجلّي الصنعة الإلهية فيه، وظهور آيات نقوش الأسماء الربانية على صفحة وجوده. أما الكفر فيقطع ذلك الانتساب، وتغشى ظلمته الصنعة الربانية وتطمس على معالمها، فتنتقص قيمة الإنسان حيث تنحصر في مادته فحسب، وقيمة المادة لا يعتد بها فهي حكم المعدوم لكونها فانية زائلة، وحياتها حياة حيوانية مؤقتة"[2].

وهكذا فإن الإيمان "يجعل الإنسان إنساناً حقاً، بل يجعله سلطاناً.. بينما الكفر يجعل الإنسان حيواناً عاجزاً"[3]. ويمضي النورسي في متابعة الدور الذي يمارسه الإيمان في الارتفاع بالإنسان إلى المكانة التي تليق به " لقد جيء بالإنسان إلى هذا العالم لأجل أن يتكامل بالمعرفة والدعاء، لأن كل شيء فيه موجّه إلى العلم ومتعلّق بالمعرفة حسب الماهية والاستعداد. فأساس كل العلوم الحقيقية ومعدنها ونورها وروحها هو (معرفة الله تعالى) كما أن أسّ هذا الأساس هو (الإيمان بالله جل وعلا). وحيث إن الإنسان متعرّض لما لا يحصى من أنواع البلايا والمصائب لما يحمل من عجز، وله مطالب كثيرة

(١) نفسه ص ٣٤٨.

(٢) نفسه ص ٣٤٨. وللمزيد من التفاصيل عن هذه المسألة ينظر: المرجع نفسه ص ٣٤٨ – ٣٥٠.

(٣) نفسه ص ٣٥٤.

وحاجات عديدة مع أنه في فقر مدقع لا نهاية له، لذا تكون وظيفته الفطرية الأساس (الدعاء) بعد الإيمان، وهو أساس العبادة ومخّها.."[1].

وكعادته، فإن النورسي يرفع نداءه في مواجهة الإنسان منبّهاً إياه أنه على مفترق طريقين، فإما الاستقامة والقدرة والإبداع والعطاء واحتلال الموقع العالي المرموق الذي يليق بمكانة الإنسان، هذا الكائن الفريد، وإما الالتواء والعجز والانحدار إلى مظان الضعف والقبح والشرّ والتخريب: "فيا أيها الإنسان، إذا آمنت بالله وحده، وأصبحت عبداً له وحده، فزت بموقع مرموق فوق جميع المخلوقات، أما إذا استنكفت من العبودية وتجاهلتها فسوف تكون عبداً ذليلاً أمام المخلوقات العاجزة.. ولسوف تكون اضعف من النملة والنحلة من جهة الخير والإيجاد بل أضعف من الذبابة والعنكبوت، وستكون أثقل من الجبل وأضرّ من الطاعون من جهة الشرّ والتخريب"[2]. بل إنه قد يوغل في اتجاه الإفساد والتشويه فيقحم "المصادفة والعبثية والضلالة" في كل شيء جميل في هذا العالم. الذي خلقه الله سبحانه في أحسن صورة، وأكمل نظام، ووجّهه إلى أحسن وجهة، ووظفه بأحسن وظيفة.. فيشوّه جماله "بعمله القبيح" وينقلب بهذا إلى درك " القبح والدمامة"[3].

ويشبّه النورسي الإنسان في هذا العالم بالبذرة. فلقد وهبت هذه أجهزة معنوية من لدن (القدرة) وأدرجت فيها خطة دقيقة ومهمة جداً من لدن

---

(1) نفسه ص ٣٥٥.

(2) نفسه ص ٣٦٠. وللمزيد من التفاصيل ينظر: المرجع نفسه ص ٣٦٠ - ٣٦١.

(3) ينظر: المرجع نفسه ص ٤٠٩ - ٤١٠.

(القدر) لتتمكن من العمل داخل التربة، ومن النمو والترعرع والانتقال من ذلك العالم المظلم الضيّق إلى عالم الهواء الطليق والدنيا الفسيحة، وأخيراً التوسّل والتضّرع لخالقها بلسان الاستعداد والقابليات لكي تصير شجرة والوصول إلى الكمال اللائق بها. فإذا قامت هذه البذرة بجلب الموادّ المضرّة بها، وصرف أجهزتها المعنوية التي وهبت لها إلى تلك المواد التي لا تعنيها بشيء، وذلك لسوء مزاجها وفساد ذوقها، فلاشك أن العاقبة تكون وخيمة جداً، إذ لا تلبث أن تتعفّن دون فائدة وتبلى في ذلك المكان الضيّق. أما إذا أخضعت أجهزتها المعنوية لتتمثل أمر ﴿ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ (الأنعام: ٩٥) التكويني وأحسنت استعمالها، فإنها ستنبثق من عالمها الضيّق لتكتمل شجرة مثمرة، باسقة ولتأخذ حقيقتها الجزئية وروحها المعنوية الصغيرة صورتها الحقيقية الكلية الكبيرة[1].

وهكذا، فإن بمقدور الإنسان إذا عرف كيف يربّي استعداده بالتعاليم الإيمانية، أن يغدو "آلة نفيسة ذات رونق وجمال، وثمرة مباركة منوّرة لشجرة الكون"[2].

والسموّ الحقيقي إنما يتمّ بتوجيه سائر قدرات الإنسان وقوى الدفع فيه إلى أعلى: القلب والسرّ والروح والعقل وحتى الخيال.. وجعل كل منها تشتغل بما يخصّها ويناسبها من وظائف العبودية. أما ما يتوهّمه من الانغماس في تفاهات الحياة، والتلذّذ بملذّاتها الهابطة والانكباب على جزئيات لذاتها الفانية، دون الالتفات إلى جمال الكليات ولذائذها الباقية الخالدة، مسخّرين

---

(١) نفسه ص ٣٦٢.

(٢) نفسه ص ٣٦٣.

القلب والعقل وسائر اللطائف الإنسانية تحت إمرة النفس الأمـارة بالـسوء، وتسييرها جميعاً لخدمتها، فإن هذا لا يعني رقياً قط، بل هـو سـقوط وهبـوط وانحطاط[1].

لقد خلق الإنسان (في أحسن تقويم) لكنه إذا حصر فكره في الحياة الدنيا وحدها فسيهبط ويتّضح ويصبح اقل شأناً بمائة درجة من حيوان كالعصفور، وإن كان أسمى وأتمّ من الحيوان من حيث رأسماله بمائة درجة!![2].

يعود النـورسي لكـي يؤكـد مـرة ومـرتين وثلاثـاً: أن الإنـسان يملـك الاسـتعداد للهبـوط إلى الـدرك الأسـفل، والـصعود في المراقـي، والتحقـق بالصيغة المثلى للإنسان في أكثر حالاته اكتمالاً وجمالاً.. "نعـم أيهـا الإنـسان! إنك من جهة جسمك النباتي ونفسك الحيوانية جزء صغير.. ومخلـوق فقـير، وحيـوان ضـعيف، تخـوض في الأمـواج الهـادرة لهـذه الموجـودات المتزاحمـة المدهشة. إلاّ أنك من حيث إنسانيتك المتكاملـة بالتربيـة الإسـلامية، المنـورة بنور الإيمان، المتضمن لضياء المحبة الإلهية، سلطان في هذه العبدية، وانك كلّي في جزئيتك، وانك عالم واسع في صغرك، ولك المقام الـسامي مـع حقارتـك فأنت المشرف ذو البصيرة النيّرة على هـذه الـدائرة الفـسيحة المنظـورة حتـى يمكنك القول: إن ربي الرحيم قد جعل لي الدنيا مـأوى ومـسكناً، وجعـل لي الشمس والقمر سراجاً ونوراً، وجعل لي الربيـع باقـة ورد زاهيـة، وجعـل لي

---

(١) نفسه ص ٣٦٣. وللمزيد من التفاصيل عن هذه المسألة ينظر: المرجع نفسه ص ٣٦٣ – ٣٦٦.

(٢) نفسه ص ٣٦٦.

الصيف مائدة نعمة، وجعل لي الحيوان خادماً ذليلاً، وأخيراً جعل لي النبات زينة وأثاثاً وبهجة لداري وسكني"[1].

فبالعبادة والتفكير يصبح الإنسان إنساناً حقاً، ويظهر نفسه أنه (في أحسن تقويم) فيصير بيمن الإيمان وبركته لائقاً للأمانة الكبرى وخليفة أميناً على الأرض[2].

[٦]

وثمة الوجه أو البعد الأخلاقي للمسألة الجمالية بقدر ارتباطها بالإنسان ودوره في العالم.. إنها قضية الخير والشرّ .. الخير باعتباره جماع القيم النبيلة الجميلة في الممارسة البشرية، وعلاقة الإنسان بالعالم وقطب الرحى فيها.. والشرّ باعتباره جماع القيم السافلة القبيحة.

والنورسي يقف طويلاً عند هذه المسألة فلا يكاد يترك فيها جانباً يثير تساؤلاً أو إشكالاً، إلاّ وعرّضه، وفق منهجه في الكشف والتحليل، للضوء، وقال كلمته المقنعة فيه. وهو ينطلق -ابتداءً- من حقيقة أن كل شيء في الوجود، حتى ما يبدو أنه أقبح شيء، فيه جهة حسن حقيقية، فما من شيء في الكون، وما من حادث يقع فيه إلاّ وهو جميل بذاته، أو جميل بغيره، أي جميل بنتائجه التي يفضي إليها. فهناك من الحوادث التي يبدو في ظاهر أمرها قبيحاً

---

(١) نفسه ص٣٧١.

(٢) نفسه ص ٣٧٣.

مضطرباً ومشوّشاً، إلاّ أن تحت ذلك الستار الظاهري أنواعاً من جمال رائق، وأنماطاً من نظم دقيقة[1].

إن الرؤية النسبية القاصرة، القلقة، الموقوتة، المنفعلة، للإنسان، هي التي تستعجل الأحكام على الحوادث والأشياء، فتسم بالقبح والبشاعة ما هو - في نهاية الأمر- حسن جميل.. والعبرة بالنتائج، والحدث أو الظاهرة، لا يعملان منفردين، وبمعزل عن مجمل الظواهر والأحداث، إنما هما جزئيتان في شبكة من المعطيات والمفردات. وما يتمخض عن تشكلّهما لا يحكم عليه منفرداً وإنما من خلال طبيعة ارتباطاته بالشبكة كلها.. وبالتالي من خلال النتائج النهائية التي تترتب على الحدث، وهي نتائج طالما تغايرت في المنظور النهائي، وبالإحالة على الحسن والقبيح عما كانت عليه في لحظات صيرورتها الأولى.. "فتحت حجاب الطين والغبار والعواصف والأمطار الغزيرة في الربيع تختبئ ابتسامات الأزهار الزاهية بروعتها، وتحتجب رشاقة النباتات الهيفاء الساحرة الجميلة. وفي ثنايا العواصف الخريفية المدمرة، المكتسحة للأشجار والنباتات، والهازّة للأوراق الخضراء من فوق الأفنان، حاملة نذر البين وعازفة لحن الشجن والموت والاندثار، هناك بشارة الانطلاق من أسر العمل لملايين الحشرات الرقيقة الضعيفة، التي تتفتح للحياة في أوان تفتّح الأزهار، فتحافظ عليها من قرّ الشتاء وضغوط طقسه، فضلاً عن أن أنواء الشتاء القاسية الحزينة تهيئ الأرض استعداداً لمقدم الربيع بمواكبه الجميلة الرائعة. نعم! إن هناك تفتحاً لأزهار معنوية كثيرة تختبئ تحت ستار عصف العواصف إذا

---

(١) نفسه ص ٢٤٩ - ٢٥٠.

عـصفت، وزلزلـة الأرض إذا تزلزلـت، وانتـشار الأمـراض والأوبئـة إذا انتشرت"[1].

ويرى النورسي أن بذور القابليات ونوى الاستعدادات الكامنة – التـي لم تنبت بعد– تتسنبل وتتجمّل نتيجة حوادث تبدو قبيحة في ظاهر شأنها، بيد أن الإنـسان المفتـون بالمظـاهر، والمتـشبث بهـا، والـذي لا ينظـر إلى الأمـور والأحداث إلاّ من خلال أنانيته ومصلحته بالـذات، تـراه تتوجـه أنظـاره إلى ظاهر الأمور وتنحصر فيها، فيحكم عليها بالقبح!! وحيث أنه يزن كـل شيء بحسب نتائجه المتوجهة إليه فحسب، تراه يحكم عليه بالشرّ !

ويمضي النورسي إلى القول بأن الغاية من الأشياء إن كان المتوجـه منهـا إلى الإنسان واحدة، فالمتوجه منها إلى أسماء صـانعها الجليـل تعـد بـالألوف. ويضرب على ذلك – كعادته – الأمثال التي تضع قارئه قبالة الوقائع المنظورة المتشكلة إزاءه تماماً، بعيداً عن تجريد الفكر وجفاء الجدل المتنائي عن الحياة.

الأشجار والأعشاب ذات الأشواك التي تدمي يد الإنسان الممتدة إليهـا يتضايق منها الإنسان ويراهـا شـيئاً ضـاراً لا جـدوى منـه، بينما هـي لتلـك الأشجار والأعشاب في منتهى الأهمية حيث تحرسها وتحفظها ممن يريد مسّها بسوء!

انقضاض العقاب على العصافير والطيور الضعيفة وتحفيزها للظهور لا يتحقق إلاّ إذا أحست بالخطر المحدق بها وشعرت بقدرة الطيور الجارحة على التسلّط عليها.

---

(١) نفسه ص ٢٥٠.

هطول الثلوج الذي يغمر الأشياء في فصل الشتاء، ربما يثير بعض الضيق لدى الإنسان، لأنه يحرمه لذة الدفء ومناظر الخضرة، بينما تختفي في قلب هذا الجليد غايات دافئة جداً ونتائج حلوة يعجز الإنسان عن وصفها.

ويخلص النورسي إلى القول بأن "الإنسان من حيث نظره القاصر يحكم على كل شيء بوجهه المتوجّه إلى نفسه، لذا يظن أن كثيراً من الأمور التي هي ضمن دائرة الآداب المحضة، بما في ذلك الوظيفة الجنسية، مجافية لها، خارجة عنها.. فما نراه قبحاً في بعض المخلوقات، والآلام والأحزان التي تخلّفها بعض الأحداث والوقائع اليومية، لا تخلو أعماقها قطعاً من أوجه جميلة، وأهداف خيرة، وغايات سامية، وحكم خبيئة، تتوجه بكل ذلك إلى خالقها الكريم كما قدّر وهدى وأراد. فالكثير من الأمور التي تبدو في الظاهر - مشوّشة مضطربة ومختلطة، إن أنعمت النظر إلى مداخلها طالعتك - من خلالها- كتابات ربانية مقدّسة رائعة، وفي غاية الجمال والانتظام والخير والحكمة"(1).

ولما كانت المسألة في بدئها ومنتهاها ترتبط بالمشيئة الإلهية وحكمتها العليا، أي بما اصطلح على تسميته " بالقدر " فإن النورسي لا يفوته أن يتعامل معها من هذه الزاوية. وهو - كعادته - يفترض اعتراضاً ثم ما يلبث أن يردّ عليه.

لقد أثبتُّ في المبحث الأول من الكلمة السادسة والعشرين(2) أن كل ما للقدر جميل وخيّر، بل حتى الشرّ الآتي منه، فإنه خير، والقبح الوارد منه

(١) نفسه ص ٢٥٠ - ٢٥١.

(٢) نفسه ص ٥٤١ - ٥٤٥.

جميل، فكيف يتلاءم هذا مع كون المصائب والبلايا التي تنزل في دار الدنيا هذه تجرح هذا الحكم وتقدح بهذا الإثبات؟

وما يلبث أن يجيب: "إن الوجود خير محض والعدم شرّ محض، والدليل هو رجوع جميع المحاسن والكمالات والفضائل إلى الوجود، وكون العدم أساس جميع المعاصي والمصائب والنقائص. ولما كان العدم شرّاً محضاً فالحالات التي تنجرّ إلى العدم أو يشم منها العدم تتضمن الشرّ أيضاً. لذا فالحياة التي هي أسطع نور للوجود، تتقوى بتقلّبها ضمن أحوال مختلفة، وتتصفى بدخولها أوضاعاً متباينة، وتثمر ثمرات مطلوبة باتخاذها كيفيات متعددة، وتبين نقوش أسماء واهب الحياة بياناً لطيفاً وجميلاً بتحولها في أطوار متنوعة. وبناء على هذه الحقيقة تتعرض حالات الأحياء في صور الآلام والمصائب والمشقات والبّليات فتتجدّد بتلك الحالات أنوار الوجود في حياتهم وتتباعد عنها ظلمات العدم، وإذا بحياتهم تتطهر وتتصفى، ذلك لأن التوقف والسكون والسكوت والعطالة والدعة والرتابة، كل منها عدم في الكيفيات والأحوال، حتى أن أعظم لذة من اللذائذ تتناقص بل تزول في الحالات الرتيبة"[1].

ثم يضرب – كعادته – مثلاً على ذلك: "أن صانعاً ثرياً ماهراً يكلف رجلاً فقيراً لقاء أجرة معينة ليقوم له في ظرف ساعة بدور النموذج (موديل) لأجل إظهار آثار صنعته الجميلة وإبراز مدى ثرواته القيّمة، فيلبسه ما نسّجه من حلّة قشيبة في غاية الجمال والإبداع، ويجري عليه أعمالاً ويظهر أوضاعاً وأشكالاً شتى لإظهار خوارق صنائعه وبدائع مهاراته، فيقص ويبدّل ويطوّل

---

(١) نفسه ص ٥٥٣.

ويقصّر وهكذا. ترى أيحق لـذلك الفقـير الأجـير أن يقـول لـذلك الـصانع الماهر: إنك تتعبني وترهقني بطلبك مني الانحنـاء مـرة والاعتـدال أخـرى، وأنك تشوّه بقصّك وتقصيرك هذا القميص الـذي يجمّلنـي ويزيننـي؟ تـرى أيقدر أن يقول له: لقد ظلمت وما أنصفت؟

"وكذلك الأمر في الصانع الجليل الفاطر الجميل (ولله المثـل الأعـلى) إذ يبدّل قميص الوجود الذي ألبسه ذوي الحياة، ويقلبه في حالات كثيرة، ذلـك القمـيص المرصّـع باللطـائف والحـواس كـالعين والأذن والعقـل والقلـب وأمثالها، يبدّله ويقلبه إظهاراً لنقوش أسـمائه الحـسنى. ففـي الأوضـاع التـي تتسم بالآلام والمصائب أنوار جمال لطيف تشف عن أشعة رحمة ضمن لمعـان الحكمة الإلهية إظهاراً لأحكام بعض الأسماء الحسنى"[1].

وتعقيباً على زلزال قاسٍ ضرب بعض البلاد التركية وألحق بها أذى مادياً ومعنوياً كبيراً، يفترض النورسي هذا السؤال: "لماذا تعم هذه المـصيبة الـبلاد كلّها، علماً أنها مصيبة ناجمة عن أخطاء يرتكبها بعض الناس"[2]، "وهـل هـذا يوافق شمول قدرته وجمال رحمته سبحانه؟"[3]. ثم ما يلبـث أن يجيـب: "لقـد أعطى القدير الجليل كل عنصر من العناصر وظائف كثيرة، وينشئ عـلى كـل من تلك الوظائف نتائج كثيرة. فلو ظهـرت نتيجـة واحـدة قبيحـة - أي شرّ ومصيبة وبلاء - من عنصر من العناصر في وظيفة من وظائفـه الكثـيرة، فـإن سائر النتائج المترتبة على ذلك العنصر تجعل هذه النتيجـة الوخيمـة في حكـم

(١) نفسه ص ٥٥٣ - ٥٥٤.
(٢) نفسه ص ١٩٦.
(٣) نفسه ص ١٩٧.

الحسن والجميل، لأنها جميلة وحسنة، إذ لو منع ذلك العنصر الغاضب على الإنسان من تلّك الوظيفة للحيلولة دون مجيء تلك النتيجة الوحيدة البشعة للوجود، لتركت إذن خيرات كثيرة بعدد النتائج الخيّرة المترتبة على سائر وظائف ذلك العنصر. أي تحصل شرور كثيرة بعدد تلك النتائج الخيرّة، حيث أن عدم القيام بخير ضروري إنما هو شر كما هو معلوم. كل ذلك للحيلولة دون مجيء شر واحد! وما هذا إلاّ منافاة للحكمة. وهو قبح واضح، ومجافاة للحقيقة، وقصور مشين، بينما الحكمة والقدرة والحقيقة منزهة عن كل نقص وقصور.."[1].

والنورسي - بهذا- إنما يفسّر الآية الكريمة: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ (سورة الأنفال ٢٥) وهي واحدة من أكثر السنن الإلهية ثقلاً وحضوراً في التاريخ البشري وأشدّها ارتباطاً بمسألة الخير والشر، وبأقدار الله سبحانه العاملة في الوجود.

كما أن النورسي لا ينسى - كذلك - أن يتعرّض لمسألة الحسن والقبح، من حيث الجزاء الأخروي.. هل هما في أصل أفعال المكلّفين ابتداء، أي في ذات نفسها ثم يأتي الشرع فيقرر أن هذا حسن وهذا قبيح. أي أن الحسن والقبح أمران ذاتيان موجودان في طبيعة الأشياء، ثم تجيء الأوامر والنواهي تابعة لذلك ولإقرارها، كما يرى المعتزلة على سبيل المثال؟ أم أنها فيما يراه أصحاب الحق - كما يسميهم النورسي- من أهل السنة والجماعة، متعلقة،

---

(١) نفسه ص ١٩٧.

ابتداء، بأمر الله سبحانه: يأمر بشيء فيكون حسناً، وينهى عن شيء فيكون قبيحاً، فبالأمر والنهي يتحقق الحسن والقبح ؟[1].

وواضح من سياق الكلام أن النورسي يلتزم رأي أهل السنة والجماعة في مسألة الحسن والقبح هذه.. وأنه يردّ، انطلاقاً من رؤيته الأصيلة في العلاقة بين الخالق والمخلوق، وانسجاماً معها: كل فعل وحكم وأمر ونهي، إلى الله سبحانه ابتداءً.. قبل ومع وبعد تشكّل الحيثيات والأسباب لأنه سبحانه صانع الحيثيات والأسباب، وإرادته المطلقة غير متحددة بها قبل إيجادها وبعده، على السواء.

---

(١) نفسه ص ٣٠٦.

الفصل الخامس

عالم الغيب

[١]

ثمة ملمح جمالي يؤكد نفسه المرة تلو المرة في معطيات النورسي عن عالم الغيب، يعرضه بصيغ شتى، ومن زوايا مختلفة.. وهذا الملمح في حقيقة الأمر ليس سوى إحدى ثوابت الرؤية الإيمانية للكون والحياة والإنسان، ولمغزى الوجود والمصير.

إن ما يتشكل في عالم الشهادة قبالتنا.. إزاء أحاسيسنا ووعينا، من لمسات جمالية، لا يعدو أن يكون شاهداً مجتزء محدوداً من أصول كلية كاملة لا نهائية، تتواجد في عالم الغيب.. وانعكاساً للمطلق على مرآة الوجود التي لن يكون بمقدورها أن تستوعب الفيض الجميل، فلا تتلقى منه سوى الأشتات والتفاريق!

وهذا يكفي على أية حال لأنه يجيء موازياً لقدرات الإنسان واستعداداته للتلقي إن على مستوى الحس أو على مستوى العقل والروح والوجدان.. كما أنه – في هذه الحالة – يحمل بطانته الأخلاقية من حيث أنه لا يتيسر بهذا القدر المعلوم، إلا وفاقاً للجهد المبذول في هذا العالم. فبقدر ما ازدادت نسبة الجهد في النوع والكم، أتيح للإنسان منحة أكبر من جماليات عالم الغيب التي لا تعد ولا تحصى.

والأمر قبل هذا وبعده ليس سوى شاهد فحسب على ما ينطوي عليه الوجود غير المنظور من كنوز مخبوءة ما سمعتها أذن ولا رأتها عين، ولا خطرت على قلب بشر.. هذه الكنوز التي تومض دراريها من بعيد بهذا اللون الجميل أو تلك الإشارة الضوئية المدهشة.. تماماً كما تومض الجواهر والأحجار الثمينة وهي تتلألأ من بعيد وسط مهرجان من الأضواء والألوان والظلال.

إن المرء ليتذكر هنا رحلة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في معراجه القدسي إلى سدرة المنتهى.. يقول (صلى الله عليه وسلم) وهو يتحدث عن بعض ما شهده هناك: "فغشيتني ألوان لا أدري ما هي" .. إذن فإننا لا نعرف من عالم اللون الجميل سوى نماذج محدودة فحسب، بينما هناك في العمق الكوني ألوان أخرى لن يكون بمقدور لغات العالم كلها أن تصفها أو تنقل انعكاساتها إلينا.. وغير الألوان هناك ألوف المفردات الجميلة، بل ملايينها، تنتشر في منجم الغيب السخي في الكم والنوع، بما تغدو إزاءها كل جماليات العالم المشهود قطرات في بحر لجي مثقل بالجواهر واللآلئ واليواقيت والانعكاسات اللونية والخفقان الجميل الذي لم يتهيأ للإنسان أن يتلقى شحناته الكاملة بعد.

كأن الله جل في علاه يريد لنا أن نتذوق جانباً من عطائه الكريم الموعود.. حيث تصير الجنة الفرصة الكاملة للتكشف الجمالي الباهر.. الحلم الذي يملأ قلوب المؤمنين بالعشق، ويدفعهم إلى تقديم كل ما يقدرون عليه من أجل الفوز بالنعيم الكبير ذاك.

إن عالمنا المشهود إذن ينبئ بمراياه عن إشارات فحسب مما يكون هناك.. وما يكون هناك لا تكاد تصفه لغة أو يحيط به خيال.

ولكون النورسي واحداً من أكثر عشاق الجمال في هذا العالم لهفة وانبهاراً وإعجاباً وتواجداً، فانه طالما حدثنا في كلماته عن جوانب ولمحات مما يجري هناك.. إنها ساحته الأثيرة وسياحته التي يحبها حتى أعمق طبقة في روحه.. وهو يعرف كيف يأخذ بأيدينا – بمحبة – إلى هناك، ويشعل في قلوب قرائه الشوق ليوم تتمزق فيه حجب الدنيا وتتكشف الأستار.. معتمداً دائماً مأثورات القرآن الكريم والسنة الشريفة، مضيفاً إليها قدراته المبدعة على التحليل والاستنتاج، وترتيب التفاصيل والجزئيات.

[٢]

في مساحات واسعة من " كلماته " يتحدث النورسي عن جماليات عالم الغيب: حيناً عن الموت والحياة، وحيناً عن البعث والنشور.. وحيناً عن الملائكة والأرواح، وحيناً عن الجنة والنعيم.. ثم هو قبل هذا ومعه وبعده، يقف طويلاً إزاء الذات الإلهية، جلت وتباركت في علاها، لكي يحكي لنا، استناداً إلى معطيات الكتاب والسنة، وتجليات أسماء الله الحسنى، عن القيم والمفردات الجميلة؛ بل عن الفيض الجميل الذي يتدفق في قلب الكون بما لا أول له ولا آخر، ولا بدء له ولا انتهاء، عن الجزاء الأوفى.. الدرجة القمة التي لا يبلغها إلا الأنبياء والشهداء والقديسون، إذ تؤثرهم رحمة الله سبحانه وعدله بالرضا الكامل، والنظر إلى الوجه الكريم جل في علاه، حيث لن

يكون بمقدور لغة في العالم أن تحكي لنا ما تهبه هـذه الرؤيـة للـروح البـشري وهو يتلقى المنحة الكبرى.

يختصر النورسي إشكالية القدرة النـسبية المحـدودة لعـالم الـشهادة عـلى تلقي المعطى الغيبي بهذه الكلمات: "الصور المنعكسة للأرواح النورانية، هذه الصور حية، وهي عين في الوقـت نفـسه، ولكـن لأن ظهورهـا يكـون وفـق قابليات المرايا، فالمرآة لا تسع ماهية الروح بالذات"(١).

تلك هي المسألة: المرايا التي لا تملك القدرة عـلى اسـتيعاب ماهيـة الـلا مرئي، لذا فهي لا تعكس لنا منه سوى جزيئات وأشتات وتفاريق..

ومع ذلك فإن هـذا يكفـي، مـا دام يمنحنـا الدلالـة المؤكـدة، بـشفرته المحدودة هذه، على عالم الغيب المترع صفاءً وعطاءً وجمالاً..

إلا أن النورسي لا يسلم بهذا، وإنما يمضي لكـي يطـرق أبـواب الغيـب مستعيناً بكتاب الله وسنة نبيـه (عليـه أفـضل الـصلاة والـسلام) متـذرعاً – أيضاً– برؤيته النقية كـالبلور.. بقدرتـه عـلى الإيغـال في المجاهيـل.. بنفـسه الطويل القدير على المقارنة والاستنتاج والتحليل والتركيب، لكي ما يلبث أن يحدثنا، وهو هناك، عن هذه المفردة أو تلك من جماليات عالم مغيـب لا يكـاد الشاهد المنظور أن يكون هباءة من خضمه الذي لا شطآن له..

وحديث النورسي ها هنا ينفسح ويطول .. وهو يتحرك لكي يتعامل مع حشود المعطيات الغيبية، على مساحات واسعة خصبة من " كلماته ".. فليس

---

(١) الكلمات : ترجمة إحسان قاسم الـصالحي، الطبعـة الأولى، دار سـوزلر، اسـطنبول – ١٩٩٢م، ص ٢١٣.

– إذن – غير استدعاء بعض الشواهد فحسب، من أجل الإيجاز الذي يحتمه بحث كهذا.

يتحدث في "الغصن الرابع" من "الكلمة الرابعة والعشرين" عن الدور الذي تمارسه الملائكة في قصر الكون الكبير.. إنهم "لا مراتب لهم في الرقي بالمجاهدة، إذ لكل منهم مقام ثابت ورتبة معينة، إلا أن لهم ذوقاً خاصاً في عملهم نفسه، وهم يستقبلون الفيوض الربانية – حسب درجاتهم – في عبادتهم نفسها، بمعنى أن أجرة خدماتهم مندرجة في عين أعمالهم. إذ كما يتلذذ الإنسان من الماء والهواء والضياء والغذاء، كذلك الملائكة، يتلذذون ويتغذون وينعمون بأنوار الذكر والتسبيح والحمد والعبادة والمعرفة والمحبة، لأنهم مخلوقون من نور، فيكفيهم النور غذاءً، بل حتى الروائح الطيبة القريبة من النور، هي الأخرى نوع من غذائهم حيث يسرون بها.. ثم أن للملائكة سعادة عظمى إلى درجة لا يدركها عقل البشر، ولا يستطيع أن يعرفها إلا الملك نفسه، وذلك فيما يعملون من عمل بأمر معبودهم.. والإشراف الذي يزاولونه بنظره، والشرف الذي يغنمونه بانتسابهم إليه، والتفسح والتنزه الذي ينالونه بمطالعة ملكه وملكوته، والتنعم الذي يحصلون عليه بمشاهدة تجليات جماله وجلاله.."[1].

وفي مقدمة الكلمة "التاسعة والعشرين" يسوق هذه المقارنة عن عالم الملائكة: "رغم ضآلة كرتنا الأرضية وصغرها قياساً إلى السماء، فإن ملأها بمخلوقات ذوات مشاعر – بين حين وآخر – وإخلاءها منهم، وتزيينها بآخرين جدد يشير، بل يصرح: أن السماوات ذات البروج المشيدة، وكأنها

---

(١) نفسه ص ٤٠٤ – ٤٠٥.

قصور مزينة، لابد أنها ملأى أيضاً بذوي حياة مدركين واعين، الذين هم نور الوجود، ومن ذوي الشعور الذين هم ضياء الأحياء، وأن تلك المخلوقات - كالإنس والجن - هم كذلك: مشاهدو قصر هذا العالم الفخم، ومطالعو كتاب الكون هذا، والداعون الادلاء إلى سلطان الربوبية ويمثلون بعبوديتهم الكلية الشاملة: تسابيح الكائنات وأوراد الموجودات أجل إن تنوع هذه الكائنات يدل على وجود الملائكة، لأن تزيين الكائنات بدقائق الصنعة المبدعة التي لا تعد ولا تحصى، وبمحاسن ذات معان ونقوش حكيمة، يتطلب - بالبداهة- أنظار متفكرين، ومستحسنين، ومعجبين مقدرين، أي يستدعي وجودهم. نعم! كما أن الجمال يطلب العاشق، والطعام يعطى للجائع، فلابد أن غذاء الأرواح وقوت القلوب في هذه الصنعة الإلهية الجميلة الرائعة، يدل على وجود الملائكة والعالم الروحاني ويتوجه إليهم. ولما كانت هذه التزيينات غير النهائية في الكون تتطلب تأملاً وعبودية غير محدودة.. فلابد أن تكون هناك أنواع غير نهائية من (الملائكة) وأجناس غير محدودة من (الروحانيات)، كي يعمروا بصفوفهم المتراصة ويملأوا هذا المسجد الكبير، هذا العالم، هذا الكون"[1].

إننا في النصين السابقين اللذين يتحدثان عن الملائكة، نجد أنفسنا قبالة غنى ملحوظ في المفردات والتعابير الجمالية، أو المستمدة من عالم الجمال وظلاله وايحاءاته: الذوق، الفيوض الربانية، التلذذ، التنعم، الأنوار، المعرفة، المحبة، النور، الروائح الطيبة، المسرة، التفسح، التنزه، مطالعة الملك والملكوت، مشاهدة تجليات الجمال والجلال، التزيين، البروج المشيدة،

---

(١) نفسه ص ٥٩٤ - ٥٩٥.

القصور المزينة، مشاهدو قصر العالم الفخم، مطالعو كتاب الكون، تزيين الكائنات بدقائق الصنعة المبدعة، محاسن ذات معان، ونقوش حكيمة، مستحسنون، معجبون، الجمال الذي يطلب العاشق، الصنعة الإلهية الرائعة، التزيينات غير النهائية في الكون.

فإذا كنا نجد في مقطعين فقط، مما يتحدث به النورسي عن عالم الغيب، ويخص بهما الملائكة، ما يقرب من الثلاثين مفردة وتعبير جمالي.. فلنا أن نتصور ما تنطوي عليه المقاطع الخصبة التي تتحدث عن معطيات الغيب عبر "الكلمات" من بدئها حتى منتهاها.. إن النورسي يستمد مفرداته من قاموس الجمال وهو يجول في عالم الغيب.. يستدعيها لكي تعينه على صياغة الخطاب عن دنيا تنث زينة وبهجة وشفافية ونوراً.. فليس ثمة غير المفردة الجمالية ما يعين على التواصل مع هذا العالم، أو مقاربته.

[٣]

والنورسي يجد في ظاهرة الموت والحياة "أسطع معجزة من معجزات القدرة الربانية وأجملها"[١]. إنها رحلة الانبعاث والزوال.. هذا التفجر المترع حيوية وخفقاناً، والذي ينبثق من قلب السكون والهمود والتلاشي بإرادة الله، لهو واحد من أشد الظواهر الجمالية غرابة وإثارة.. وسواء عاينا الظاهرة الفذة في دنيا النبات والحيوان.. أو في عالم الإنسان.. أو عبر تقلب السدم والمجرات والذرات والجزئيات، ودوران الشمس والقمر، وتعاقب الغروب والشروق،

(١) نفسه ص ٨١٢.

ورحلة الليل والنهار .. فإننا نجد أنفسنا قبالة حالة مترعة بالقيم الجمالية .. ويزيدها غرابة وجمالاً أنها تقيم جسراً بين عالمي الغيب والشهادة، فتتخلق مفرداتها وتتشكل إزاء حواسنا.. قبالتنا تماماً.. لكن جذورها.. جذورها المغيبة.. توغل هناك في عالم الغيب، بحيث لا يعرف إلا الله سبحانه كيف يتأتى للظلمة أن تمنح النور، وللموت أن يهب الحياة؟! إنها - إذن- وكما يقول النورسي "اسطع معجزة من معجزات لقدرة الربانية وأجملها".

يمضي النورسي في معاينة الظاهرة وسبرها فيرى أن الحياة " كالبؤرة التي تجمع فيها الأشعة الضوئية المختلفة، فتتداخل الصفات المتنوعة في الحياة بعضها في بعض، تداخلاً يجعل كل صفة منها عين الأخرى. فكأن الحياة بكاملها (علم) كما أنها (قدرة) في الوقت نفسه، وهي (حكمة) أو (رحمة) سواء بسواء.. نعم.. إننا نرى أمامنا ماثلة للعيان أنواعاً لا تعد ولا تحصى من "الحياة" تخلق كل حين، وإن أرواحها - التي هي أصولها وذواتها - تخلق دفعة واحدة من العدم، وترسل أنواعاً غفيرة من الأحياء إلى ميدان الحياة مباشرة.."[1].

والموت.."ليس عدماً ولا إعداماً، ولا فناءً، ولا لعبة العبث، ولا انقراضاً بالذات من غير فاعل، بل هو تسريح من العمل، من لدن فاعل حكيم، وهو استبدال مكان بمكان، وتبديل جسم بجسم، وانتهاء من وظيفة، وانطلاق من سجن الجسم، وخلق منتظم جديد وفق الحكمة الإلهية"[2].

---

(١) نفسه ص ٨١٣.

(٢) نفسه ص ٨١٤.

والموت برهان قاطع على وحدانية الله جل في علاه وعلى سرمديته، فكما أن الأحياء "تدل بوجودها على الخالق الحي" فإنها تشهد بموتها على "سرمديته ووحدانيته".

ويضرب النورسي على ذلك مثلاً: سطح الأرض، ونحن نلمح في "شاهده" وفي مفردات هذا الشاهد، معجزة الفناء والانبعاث، وإبداعية التقلب بين الموات والحياة، وهي تنطوي على جمالياتها الباهرة التي تأسر الألباب: "إن النظام الرائع الباسط هيمنته على الأرض بأسرها، والذي يبدو لنا من خلال مظاهره عياناً، يشهد شهادة صادقة على الصانع القدير. فعندما يسدل الشتاء كفنه الثلجي الأبيض على وجه الأرض الربيعي، وتموت الأحياء التي كانت تزخر بالحياة فوقها، فإن منظر هذا الموت ينقل نظر الإنسان إلى أبعد من اللحظة الراهنة، فيركب متن الخيال ليذهب بعيداً إلى الماضي الذي درجت إليه جنائز كل ربيع راحل، فتتفتح عندئذ أمام النظر مشاهد من الموت والحياة أوسع من هذا المنظر المحصور في الحاضر الراهن. لأن كل ربيع راحل.. كان مشحوناً ملء الأرض بمعجزات القدرة الإلهية، وهو يشعر الإنسان بمجيء موجودات تتدفق بالحياة وتملأ الأرض كلها في ربيع مقبل.."[1].

إن هذا كله ليس سوى دلالة على "الحشر" الكبير الذي سيعقب دمار الحياة على الأرض.. وهو واحد من أكثر الحقائق الغيبية في المنظور الإسلامي ثقلاً وحضوراً.

---

(١) نفسه ص ٨١٤ - ٨١٥.

وما يهمنا هنا ليس الجانب العقدي للظاهرة، وإنما بعدها الجمالي في المنظور النورسي الذي يعرف كيف ينقب عن ملامح الجمال وخطوطه وحيثياته في كل حدث أو شيء أو ظاهرة أو موجود.. ويكفي أن يكون " الحشر " انبعاثاً بعد الخمود الأخير للعالم، لكي ينطوي على البعد الجميل.

والنورسي يرى كيف " أن الجمال البديع الخالد الأبدي الذي ليس له مثيل يطلب خلود مشتاقيه وبقاءهم وهم كالمرآة العاكسة لذلك الجمال. وإن الصنعة الكاملة الخالدة غير الناقصة تستدعي دوام مناديها المتفكرين.. لذا فالروح باقية بصحبة ذلك الجمال.. في طريق الخلود والأبدية"[1]. بل إن أبسط المخلوقات - كذلك - لم تخلق للفناء، بل لها نوع من البقاء. فالزهرة البسيطة مثلاً التي لا تملك روحاً مثلنا، هي أيضاً عندما ترحل ظاهراً من الوجود، تبقى صورتها محفوظة في كثير من الأذهان، كما يدوم قانون تراكيبها في مئات من بذيراتها المتناهية في الصغر، فتمثل بذلك نموذجاً لنوع من البقاء بآلاف من الأوجه"[2].

وهو يجد أن جمالية التناسق الكوني للخلق تقوم على "القصد".. "فإن لم تكن هناك حياة أخرى وسعادة خالدة، فماذا يعني هذا النظام الرصين؟ إنه سيبقى مجرد صورة ضعيفة باهتة واهية.. وستذهب المعنويات والروابط والنسب - التي هي روح ذلك النظام والتناسق: البديع - هباءً منثوراً"[3]. كما أنه طالما أكد على انتفاء العبثية في الخلق الذي صيغ على "أرق صورة وأجمل

---

(١) نفسه ص ٦٠٩.

(٢) نفسه ص ٦١٠.

(٣) نفسه ص ٦١٣.

كيفية" والذي حمل فيه الإنسان استعداداً أصيلاً للكمال والخلود. ويجيء الحشر لكي يؤكد مصداقية هذا كله، وإلا فهو "الإسراف والعبث" وانتفاء الحكمة من الخلق.. وحاشا لله[1].

وهو يعود لكي يؤكد المرة تلو المرة على ما تشهده الحياة الدنيا من "تبدلات وتحولات في كثير من الأنواع، حتى في الليل والنهار، وفي الشتاء والربيع.. وهي تشابه الحشر والنشر، وهي نوع من القيامة لكل منها، تشعر بحدوث القيامة الكبرى وتخبر عنها رمزاً"[2]. وأن الذي "زين بستان الربيع العظيم الواسع بمئات الآلاف من نقوش الحشر، يتوج بها هامة الكرة الأرضية كأنها زهرة واحدة، فيظهر لنا جمال صنعته وكمال حكمته". هل يجرؤ أحد ليقول لهذا القدير ذي الجلال "كيف يحدث القيامة؟ أو كيف يبدل هذه الدنيا بآخرة؟"[3].

والنورسي يعاين الحقيقة مقارنة بالصورة فيرى أنها مهما كانت ضعيفة فإنها لا تموت أبداً، ولا يمكن أن تمحى كالصورة، بل تسير وتجول في الصور والتشخصات والأشكال المختلفة، إذ تكبر وتظهر كلما تقدمت، بعكس الصورة فإنها تتهرأ وتهزل وتتمزق وتتجدد لتظهر بحلة جميلة جديدة تلائم قوام الحقيقة الثابتة الكبيرة. وهو يخلص إلى القول بأن " الحقيقة والصورة تتناسبان عكسياً زيادة ونقصاناً، أي كلما اخشوشنت الصورة رقت الحقيقة، وكلما ضعفت الصورة تقوت الحقيقة بالنسبة نفسها، وهذا قانون شامل

(١) نفسه ص ٦١٤.

(٢) نفسه ص ٦١٤ – ٦١٥.

(٣) نفسه ص ٦٢٢ – ٦٢٣.

لجميع الأشياء الداخلة في قانون التكامل. فليأتين ذلك الزمن الذي يتمزق فيه – بإذن الفاطر الجليل– عالم الشهادة الذي هو صورة لحقيقة الكائنات العظمى وحشر لها، ومن ثم يتجدد بصورة أجمل.."[1].

كما أنه يلاحظ اصطراع الأضداد في هذا العالم: كالخير والشر، والحسن والقبح، والنفع والضر، والكمال والنقص، والضياء والظلمة، والهداية والضلال، والنور والنار، والإيمان والكفر، والطاعة والعصيان، والخوف والمحبة .. وأنه لابد من نهاية لهذا الاصطراع الذي تتميز فيه الأضداد وتفترق، لكي تصب أخيراً في سياقين كبيرين: الجنة والنار.. "ولما كان عالم البقاء سيبنى من عالم الفناء هذا، فالعناصر الأساسية لعالمنا – إذن– ستساق وترسل حتماً إلى البقاء والأبد"[2] في أقصى صيغ التكشف والتنامي والاكتمال حيث لا يعتورها نقص أو غبش أو صيرورة أو تغير أو تحول أو فناء.. ويومها ستأخذ جهنم، باعتبارها المصير الأخير للقبح، صورتها الأبدية البشعة المريعة، وتتجلى الجنة بروعتها وأبهتها الجمالية الخالدة.. وسيمنح أهل هذين الدارين الخالدين وجوداً ثابتاً لا يعتريه تغير ولا انحلال[3]..

ثم هو يخلص بعد هذا كله إلى حتمية البعث .. " نعم. إن الدنيا بعد دمارها ستبعث آخرة، وإن الخالق القدير الذي بناها لأول مرة، سيعمرها تعميراً أجمل من عمارتها الأولى.. فلأنه وعد فسيفي بالوعد حتماً "[4].

---

(١) نفسه ص ٦٢٨ – ٦٢٩.

(٢) نفسه ص ٦٣٠.

(٣) انظر : المرجع نفسه، ص ٦٣١ – ٦٣٢.

(٤) نفسه ص ٦٣٢.

[٤]

والنورسي يملك تذوقاً لجماليات الجنة يذكرنا بتذوقات المتصوفة والزهاد.. ولكنه قد يختلف عنهم برؤيته التوازنية التي ترفض الذهاب بعيداً باتجاه الثواب المعنوي على حساب "الحسيات" المؤكدة في كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم).. ولأنه الابن البار لهذين المصدرين التأسيسيين لعقيدة الآخرة بثوابها وعقابها.. وبنعيمها وقبحها.. فانه يعرف كيف يظل وفياً لمعطياتها وهو يجول في المأثورات الخاصة بالجنة، دون أن ينحرف ذات اليمين أو ذات الشمال.. بل أنا نلحظه، منذ البدء، ينطلق من آيات القرآن الكريم التي تخص الجنة واصفاً إياها بأنها " أجمل من الجنة، وألطف من حورها، وأحلى من سلسبيلها " وأن هذه الآيات البينات " لم تدع مزيداً لكلام"[1]. لذا فإن كل ما سيفعله هو نوع من المقاربة " لتلك الآيات الساطعة الأزلية الرفيعة الجميلة"، وأنه، انطلاقاً من هناك، سيقدم لقارئه "باقة من مسائل لطيفة هي نماذج أزاهير من جنة القرآن"، معتمداً الترميز، مؤكداً منذ البدء، أن الجنة " شاملة جميع اللذائذ المعنوية، كما هي شاملة جميع اللذائذ المادية، الجسمانية أيضاً"[2]. وهو من أجمل تأكيد المعطيات الإيمانية بهذا الخصوص يثير – كعادته– سؤالاً، أو اعتراضاً، لكي ما يلبث أن يجيب عليه، فيمنح مقولاته –بهذا التقابل– حيوية وإقناعاً، وينقذها من التجريد .. إنه يسال: "ما علاقة الجسمانية (المادية) القاصرة الناقصة المتغيرة القلقة المؤلمة، بالأبدية والجنة ؟ فما دامت الروح تكتفي بلذائذها العلوية في الجنة، فلم يلزم حشر جسماني للتلذذ بلذائذ جسمانية؟"

(١) نفسه ص ٥٨٥.
(٢) نفسه ص ٥٨٥.

وما يلبث أن يجيب: "على الرغم من كثافة التراب وظلمته، نسبة إلى الماء والهواء والضياء، فهو منشأ لجميع أنواع المصنوعات الإلهية، لذا يسمو ويرتفع معنى فوق سائر العناصر.. وكذا النفس الإنسانية على الرغم من كثافتها، فإنها ترتفع وتسمو على جميع اللطائف الإنسانية بجامعيتها بشرط تزكيتها. فالجسمانية كذلك هي أجمع مرآة لتجليات الأسماء الإلهية، وأكثرها إحاطة وأغناها.. فالآلاف التي لها القدرة على وزن جميع مدخرات خزائن الرحمة الإلهية وتقديرها، إنما هي في الجسمانية، إذ لو لم تكن حاسة الذوق التي في اللسان مثلاً حاوية على آلات لتذوق الرزق بعدد أنواع المطعومات كلها، لما كانت تحس بكل منها، وتتعرف على الاختلاف فيما بينها، ولما كانت تستطيع أن تحس وتميز بعضها عن بعض، وكذا فإن أجهزة معرفة أغلب الأسماء الإلهية المتجلية، والشعور بها وتذوقها وإدراكها إنما هي في الجسمانية. وكذا فإن الاستعدادات والقابليات القادرة على الشعور والإحساس بلذائذ لا منتهى لها، وبأنواع لا حدود لها، إنما هي في الجسمانية.

"يفهم من هذا أن صانع هذه الكائنات، قد أراد أن يعرف بهذه الكائنات جميع خزائن رحمته، ويعلم بها جميع تجليات أسمائه الحسنى، ويذيق بها جميع أنواع نعمه وآلائه، وذلك من خلال مجرى حوادث هذه الكائنات وأنماط التصرف فيها، ومن خلال جامعية استعدادات الإنسان.. فلابد إذن من حوض عظيم يصب فيه سيل الكائنات العظيم هذا.. ولابد من معرض عظيم يعرض فيه ما صنع في مصنع الكائنات هذا.. ولابد من مخزن أبدي تخزن فيه محاصيل مزرعة الدنيا هذه .. أي لابد من دار سعادة تشبه هذه الكائنات إلى حد ما، وتحافظ على جميع أسسها الجسمانية والروحانية.. ولابد أن ذلك الصانع الحكيم والعادل الرحيم، قد خص لذائذ تليق بتلك الآلات

الجسمانية أجرة لوظائفها، ومثوبة لخدماتها، وأجراً لعبادتها الخاصة. وإلا تحصل حالة منافية تماماً لحكمته سبحانه وعدالته ورحمته، مما لا ينسجم ولا يليق بجمال رحمته وكمال عدالته مطلقاً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً"[١].

ليس هذا فحسب، بل إن اللذائذ والجماليات الحسية، ستتغاير في الكم والنوع، عما كانت عليه في الحياة الدنيا، وستتخذ " صوراً رفيعة جداً، وسامية جداً " وستصير أكثر لطافة وذوقاً، بما يليق بالجنة ويلائم الأبدية، بل إن المواد الجامدة التي لا شعور لها ولا حياة في دار الدنيا هذه، تصبح هناك ذات شعور وحياة[٢].

والنورسي يؤكد في أكثر من موضع على " أن التزيينات في هذه الدنيا ليست لأجل التلذذ والتمتع فحسب، إذ لو أذاقتك اللذة ساعة، أذاقتك الألم بفراقها ساعات وساعات، فهي تذيقك مثيرة شهيتك دون أن تشبعك، لقصر عمرها أو لقصر عمرك الذي لا يكفي للشبع ". ثم هو يصل إلى القول بأن " هذه الزينة الغالية الثمن والقصيرة العمر هي للعبرة والشكر، وللحض على الوصول إلى تناول أصولها الدائمة، ولغايات أخرى سامية". إن "هذه الزينة في الدنيا بمثابة صور ونماذج للنعم المدخرة لدى الرحمة الإلهية في الجنة للمؤمنين"[٣].

والنورسي وهو يتحدث عن جماليات الجنة يوغل في التفاصيل والمقارنات والتشبيهات التي ينسجها - في الأساس- من حقائق القرآن

---

(١) نفسه ص ٥٨٥ - ٥٨٦.

(٢) نفسه ص ٥٨٧.

(٣) نفسه ص ٧٨ - ٧٩.

وأحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .. وهـو يـستجيش كـل قدراتـه العقلية والحسية والروحية والذوقية والوجدانية، لمقاربـة الـصورة، وتعميـق خطوطها ومساحاتها في الحس والخيال والوجدان.

إن قارئ النورسي يجد نفسه، المرة تلو المرة، وهو يسيح في ريـاض الجنـة ونعيمها.. ليس بخياله، ولكن بكينونتـه، فكأنـه يراهـا بـأم عينيـه، ويـشمها ويتذوقها.

وهو يقدم تشبيهات بديعة من أجـل التحقـق بالمقاربـة المطلوبـة، لهـذه المفردة أو تلك من مفردات الثواب الكبـير والأنعـام الإلهـي الـذي لا تحـده حدود، وسنكتفي باثنتين منها حسبما يسمح به المجال.

إنه – مثلاً – يتحدث عـن طبقـات الجنـة الـثماني: كـل منهـا أعـلى مـن الأخرى إلا أن عرش الرحمن سقف الكل: " الجنة مائة درجـة، مـا بـين كـل درجتين كما بين السماء والأرض، والفـردوس أعـلى الجنـة وأوسـطها وفوقـه عرش الرحمن"[1]. إذ لو بنيت بيوت متداخلة حول جبل مخروطي، كـل منهـا أعلى من الآخر، كالدوائر المحيطة بالجبل، فإن تلك الدوائر تعلو الواحدة على الأخرى، ولكن لا تمنع الواحدة الأخرى عن رؤية الـشمس، فنـور الـشمس ينفذ في البيوت كلها، كذلك الجنان شبيهة بهذا المثال إلى حد، كـما نفهـم مـن الأحاديث الشريفة[2].

ويقف بعض الوقت عند الأحاديث الشريفة التي تحكي عـن المـرأة مـن نساء أهل الجنة يرى مخ سوقها من وراء سبعين حلة، كما يرى الشراب الأحمر

---

(١) نفسه ص ٥٨٨، هامش ١.

(٢) نفسه ص ٥٨٨ – ٥٨٩.

من الزجاجة البيضاء[1]، ويتساءل: كيف يعد هذا جمالاً ؟ ثم ما يلبث أن يجيب: " إن الحور العين جامعة لكل نوع من أنواع الزينة والحسن والجمال المادية والمعنوية، التي تشبع وترضي كل ما في الإنسان من مشاعر وحواس وقوى ولطائف عاشقة للحسن، ومحبة للذوق، ومفتونة بالزينة، ومشتاقة إلى الجمال. بمعنى أن الحور يلبسن سبعين طرزاً من أقسام زينة الجنة، دون أن يستر أحدها الآخر، إذ ليس من جنسه، بل يبدين جميع مراتب الحسن والجمال المتنوعة بأجسادهن وأنفسهن وأجسامهن بأكثر من سبعين مرتبة حتى يظهرن حقيقة إشارة الآية الكريمة: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ (سورة الزخرف ٧١) .."[2]. باختصار شديد، فإن " الجنة بجميع لطائفها وجمالها ونعيمها إنما هي تجل لإظهار جمال رحمته - سبحانه - ورحمة جماله!!"[3].

[٥]

والنورسي يمضي مصعداً في قراءة آثار الجمال في كتاب الغيب الكبير التي لا تنقضي عجائبه.. حتى إذا بلغ الذات الإلهية (ولله المثل الأعلى) جل جلاله، وتقدست أسماؤه وأفعاله وصفاته.. حاول أن يمد يديه إلى تلامذته لكي يرفعهم معه إلى هناك من أجل تملي بعض انعكاسات الجمال الإلهي على صفحة الوجود المنظور، أو في أغوار الروح والوجود، بقدر ما يطيق الإنسان أن يتعامل معه، ويتملاه، وإلا فإنها الصعقة التي خر لها موسى مغشياً عليه،

(١) نفسه ص ٥٨٩، هامش ١.
(٢) نفسه ص ٥٨٩.
(٣) نفسه ص ٧٦٢.

يوم أن دفعه الشوق العارم لرؤية الله سبحانه فنادى: ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ فجاءه الجواب: ﴿لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ (سورة الأعراف: ١٤٣).

لم يطق الجبل العظيم شحنة التجلي الكبرى، فصار هباءً.. فكيف بالإنسان، إنما هي القبسات التي تطيقها قدراته هنا في الأرض، والتي إن تمكنت من اجتياز الامتحان الصعب في حياتها الدنيا، وكتب لها النعيم المقيم في الآخرة، أعطيت استعداداً أكبر بكثير، وبالقدر الذي تستحقه، لتلقي سيال الجمال الإلهي.. قمة الرضوان، وهدف المؤمنين والصديقين والشهداء.. الغالي.. العزيز " فاللذة والحسن والكمال والسعادة الحقيقية في الأوصاف الراقية الرفيعة - إذن - لا ترجع إلى الأقران ولا تنظر إلى الأضداد، بل إلى مظاهرها ومتعلقاتها، فإن جمال رحمة ذي الجمال والكمال، الحي القيوم، الحنان المنان، الرحمن الرحيم، ينظر ويتوجه إلى المرحومين الذين نالوا رحمته، ولا سيما إلى أولئك الذين نالوا أنواع رحمته الواسعة وشفقته الرؤوفة في الجنة الخالدة. وله جل وعلا ما يشبه المحبة - تليق بذاته سبحانه - بمقدار سعادة مخلوقاته وبمدى تنعمهم وفرحهم، وله شؤون سامية مقدسة جميلة منزهة ذات معانٍ تليق به سبحانه وتعالى، ما لا نستطيع أن نذكرها -لعدم وجود إذن شرعي- من التعابير المنزهة للغاية، والمقدسة الجليلة، والتي يعبر عنها باللذة المقدسة والعشق المقدس والفرح المنزه والسرور القدسي، بحيث أن كلا منها هي أسمى وأرفع وأنزه، بما لا يتناهى من درجات العلو والسمو والنزاهة مما يظهر في الكائنات وما تشعر به من العشق والسرور بين الموجودات"[١].

---

(١) نفسه ص ٧٤٤.

مهما يكن من أمر، فأن النورسي يفرش في " كلماته " لجماليات الذات الإلهية وكمالها، وتجليات أسمائها الحسنى .. مساحات واسعة، ما فرشها بهذا القدر، لحقيقة أخرى في الوجود .. ويصعب على المرء - والحالة هذه- أن يستقصي ما قدمه الرجل في هذا المجال، أو أن يقرأه من ألفه حتى يائه.. ولكنها الشواهد والإشارات، قد تقرب المسألة، وتغني عن الكثير.

ولعل نقطة الارتكاز في معطيات النورسي هنا، تبدو في المساحات الواسعة التي خصصها لأسماء الله الحسنى وتجلياتها في العالم، بالنسب والمواصفات التي يطيقها هذا العالم، وفي حدود الحكمة من الخلق ومعادلات الوجود والمصير: " الحقائق الحقيقية للأشياء، إنما هي الأسماء الإلهية. الحسنة، أما ماهية الأشياء فهي ظلال تلك الحقائق"[1].

ويجب أن نلحظ – ابتداءً - أن وصف أسماء الله سبحانه " بالحسنى "، يحمل مغزاه في هذا المجال. إن هذه الصفة مشتقة من قاموس الحسن والجمال، وأن أسماءه –سبحانه- تنطوي بالضرورة على البعد الجمالي، الذي هو خصيصة من خصائص الذات الكاملة المبدعة الخلاقة، جلت في علاها. وليس ثمة أكثر تبياناً وتأكيداً لهذه المسالة التاسيسية لجماليات الحضور الإلهي، من ذلك المثال الذي يضربه النورسي في الموقف الثالث من الكلمة الثانية والثلاثين، والذي نجدنا مضطرين لاقتطاع بعض فقراته، محيلين القارئ الكريم إلى تفاصيله الكاملة في "الكلمات"[2]. " إذا أراد فنان بارع في التصوير والنحت، رسم صورة زهرة فائقة الجمال، وعمل تمثال حسناء رائعة الحسن،

---

(١) نفسه ص ٧٤٩، وأنظر : المرجع نفسه، الصفحات ٥١، ٧٨ - ٧٩، ٢١٥.

(٢) انظر : المرجع نفسه، ص ٧٤٩ - ٧٥٤.

فإنه يبدأ أول ما يبدأ بتعيين بعض خطوط الشكل العام لكل منهما.. فتعيينه هذا إنما يتم بتنظيم ويعمله بتقدير يستند فيه إلى علم الهندسة فيعين الحدود وفقه.. فهذا التنظيم والتقدير يدلان على أنهما فعلاً بعلم وبحكمة.. وها قد بدأت قابلية الحسن والزينة في الظهور مما يدل على أن الذي يحرك الصنعة والعناية هو إرادة التجميل والتحسين وقصد التزيين.. ولما كان الجمال يحب نفسه، فلابد انه يريد رؤية نفسه في المرايا، فالنعم الموضوعة على التمثال، والثمرات اللطيفة المعلقة على الصورة، تحمل لمعة براقة من ذلك الجمال المعنوي - كل حسب قابليته- فتظهر تلك اللمعات الساطعة نفسها إلى صاحب الجمال وإلى الآخرين معاً.. وعلى غرار هذا المثال ينظم الصانع الحكيم (ولله المثل الأعلى) الجنة والدنيا والسماوات والأرض والنباتات والحيوانات والجن والأنس والملك والروحانيات، أي بتعبير موجز ينظم سبحانه جميع الأشياء كلها وجزئياتها، ينظمها جميعاً بتجليات أسمائه الحسنى، ويعطي لكل منها مقداراً معيناً حتى يجعله يستقرئ اسم " المقدر، المنظم، المصور ".. وهكذا بتعيينه سبحانه وتعالى حدود الشكل العام لكل شيء تعييناً دقيقاً يظهر اسم (العليم) (الحكيم). ثم يرسم بمسطرة العلم والحكمة ذلك الشيء ضمن الحدود المعينة، رسماً متقناً إلى حد يظهر معاني الصنع والعناية، أي اسمي: الصانع، الكريم، ثم يضفي على تلك الصورة جمالاً وزينة، بفرشاة العناية وباليد الكريمة للصنعة، فإن كانت الصورة إنساناً أضفى على أعضائه كالعين والأنف والأذن ألواناً من الحسن والجمال، وإن كانت الصورة زهرة أضفى سبحانه إلى أوراقها وأعضائها وخيوطها الرقيقة ألواناً من الجمال والرواء والحسن، وإن كانت الصورة أرضاً منح معادنها ونباتاتها وحيواناتها ألواناً من الزينة وضروباً من الجمال والحسن، وإن كانت

الصورة جنة النعيم أسبغ على قصورها ألواناً من الحسن وعلى حورها أنواعاً من الزينة.. وهكذا قس على هذا المنوال.."[1].

في حديثه عن تجليات اسم " الجواد، الجميل " يتساءل النورسي: " أمن الممكن.. لجمال سرمدي لا مثيل له، وكمال أبدي لا نقص فيه أن لا يطلب دار سعادة ومحل ضيافة يخلد فيه.. المشتاقون إلى الجمال، المعجبون به؟". وما يلبث أن يجيب: " أنظر إلى معارض أقطار العالم التي هي مشهد من مشاهد الصنعة الإلهية وتدبر في ما تحمله النباتات والحيوانات على وجه الأرض من إعلانات ربانية، وأنصت إلى الداعين الأدلاّء إلى محاسن الربوبية وهم الأنبياء عليهم السلام والأولياء الصالحون، كيف أنهم يرشدون جميعاً الناس لمشاهدة كمال صنعة الصانع ذي الجلال بتشهيرهم صنعته البديعة ويلفتون أنظارهم إليها. إذن، فلصانع هذا العالم كمال فائق عظيم مثير للإعجاب، خفي مستتر، فهو يريد إظهاره بهذه المصنوعات البديعة لأن الكمال الخفي الذي لا نقص فيه ينبغي الإعلان عنه على رؤوس أشهاد مقدرين مستحسنين معجبين به، وإن الكمال الدائم يقتضي ظهوراً دائماً، وهذا بدوره يستدعي دوام المستحسنين المعجبين، إذ المعجب الذي لا يدوم بقاؤه تسقط في نظره قيمة الكمال. ثم إن هذه الموجودات العجيبة البديعة الدقيقة الرائعة المنتشرة في هذا الكون تدل بوضوح على محاسن الجمال المعنوي الذي لا مثيل له، وتريك كذلك لطائف الحسن الخفي الذي لا نظير له. وان تجلي ذلك الحسن الباهر المنزه، وذلك الجمال الزاهر المقدس يشير إلى كنوز كثيرة خفية موجودة في الأسماء الحسنى، بل في كل اسم منها. ومثلما يطلب هذا الجمال الخفي السامي

---

(١) نفسه ص ٧٤٩ - ٧٥١.

الذي لا مثيل له، أن يرى محاسنه في مرآة عاكسة، ويشاهدون قيم حسنه ومقاييس جماله في مرآة ذات مشاعر وأشواق إليه، فإنه يريد الظهور والتجلي ليرى جماله المحبوب أيضاً بأنظار الآخرين. أي أن النظر إلى جمال ذاته يستدعي أن يكون من جهتين:

"الأولى: مشاهدة الجمال بالذات في المرايا المختلفة المتعددة الألوان. والأخرى: مشاهدة الجمال بنظر المشاهدين المشتاقين المعجبين المستحسنين أي أن الجمال والحسن يقتضيان الشهود والأشهاد، وهذان يستلزمان وجود المشاهدين المشتاقين والمستحسنين المعجبين. ولما كان الجمال والحسن خالدين سرمديين فإنهما يقتضيان خلود المشتاقين وديمومتهم. لأن الجمال الدائم لا يرضى بالمشتاق الزائل الآفل .. ولما كان ذلك الجود في العطاء غير المحدود، وذلك الحسن في الجمال الذي لا مثيل له، وذلك الكمال الذي لا نقص فيه، يقتضي خلود الشاكرين، وبقاء المشتاقين المستحسنين، ونحن نشاهد رحلة كل شخص واختفاءه بسرعة في دار ضيافة الدنيا هذه، دون أن يستمتع بإحسان ذلك السخاء إلا نزراً يسيراً بما يفتح شهيته فقط، ودون أن يرى من نور ذلك الجمال والكمال إلا لمحة خاطفة. إذن الرحلة منطلقة نحو متنزهات خالدة ومشاهد أبدية"[1].

بهذا يضع النورسي قارئه ليس - فقط - أمام مقتضيات المنطق الذي يحتم مضي الأسباب إلى نتائجها، وإنما أيضاً أمام قوة الواقعة المنظورة ودلالاتها التي يفضي بعضها إلى بعض، بدءً بتشكل الجزئيات والمشاهد

---

(١) نفسه ٧٠ - ٧٢.

الجمالية المحدودة في الحياة الدنيا، وانتهاء بالحالة الكاملة في "متنزهات " النعيم المقيم و "مشاهد الأبدية".

ما من شيء في هذا العالم.. ما من قيمة أو معطى جميل إلا وهو يومئ ويومض، من خلال نسبه المجزوءة، ووجوده المرسوم بمقدار، إلى الصيغة العليا التي يمضي فيها إلى مداه، ويتكشف عن أبعادها المدهشة المذهلة كلها.

إن النورسي، وهو يضع قراءه قبالة الواقعة الكونية، كأنما يقدم لهم وسيلة إيضاح هي أقوى وأشد تأثيراً وإقناعاً من مئات من الصفحات تدور فيها الكلمات والمعاني في رحى التحليل والتعليل العقليين اللذين يعانيان من جفاء التجريد ووحشة الانفصال عن خفقان الحياة.. إنه هنا يذكر بمنهج القرآن الكريم نفسه، حيث يجد الإنسان نفسه قبالة الواقعة الكونية تماماً، بكل ثقلها وحضورها، وهنالك لا يمكن لكل ذي قلب ذكي وعقل سليم غير ملتوٍ ولا معاند، إلا أن يذعن للحق المشهود.

يعود النورسي في مقطع آخر للحديث عن تجلي اسم "الجميل والجليل" ويتساءل – كعادته – من أجل استفزاز قارئه، ووضعه في حالة الدهشة والإنكار!! " أمن الممكن لمبدع هذه الموجودات، وهو العليم المطلق، والقدير المطلق، أن لا يوفي بما أخبر به؟.. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.. علماً أن الأمور التي وعد بها .. ليست عسيرة على قدرته قطعاً، بل هي يسيرة وهينة وسهلة، كسهولة إعادة الموجودات التي لا تحصل للربيع السابق، في الربيع المقبل.."[1].

---

(١) نفسه ص ٨٤.

[٦]

ويمضي النورسي يعرض قبالة الوجدان البشري حشوداً متلاحقة من الوقائع والمعطيات المشهودة، تأخذ بالحس والعقل والوجدان وتمنحها القناعة بمصداقية التحول المحتوم من المجزوء إلى الكلي ومن النسبي إلى المطلق . ومن الومضة والإيماءة إلى الحقيقة الأصلية بعيداً عن تكلف الجدل ومماحكته.. " فهل يعقل لحكيم ذي جلال اختار هذا الإنسان من بين المخلوقات، وجعله مخاطباً كلياً له، ومرآة جامعة لأسمائه الحسنى، ومقدراً لما في خزائن رحمته من ينابيع، ومتذوقاً لها ومتعرفاً إليها، والذي عرف – سبحانه– ذاته الجليلة له بجميع أسمائه الحسنى، فأحبه وحببه إليه.. أفمن المعقول بعد كل هذا أن لا يرسل ذلك (الحكيم) جل وعلا هذا الإنسان المسكين إلى مملكته الخالدة تلك؟ ولا يسعده في تلك الدار السعيدة بعد أن دعاه إليها؟ أم هل يعقل أن يحمل كل موجود وظائف جمة – ولو كان بذرة– بثقل الشجرة، ويركب عليه حكماً بعدد أزهارها ويقلده مصالح بعدد ثمارها، ثم يجعل غاية وجود تلك الوظائف والحكم والمصالح جميعها مجرد ذلك الجزء الضئيل المتوجه إلى الدنيا. أي يجعل غاية الوجود هي البقاء في الدنيا فقط، الذي لا أهمية له حتى بمثقال حبة من خردل ؟ ولا يجعل تلك الوظائف والحكم والمصالح بذوراً لعالم المعنى، ولا مزرعة لعالم الآخرة لتثمر غاياتها الحقيقية اللائقة بها؟ وهل يعقل أن تذهب جميع هذه المهرجانات الرائعة والاحتفالات العظيمة هباءً بلا غاية، وسدى بلا معنى، وعبثاً بلا حكمة؟ أم هل يعقل أن لا يوجه كلها إلى عالم المعنى وعالم الآخرة لتظهر غاياتها الأصيلة وأثمارها الجديرة بها؟.."[1].

---

(١) نفسه ص ٨٩.

وكما ترى، فإن أسئلة النورسي تتلاحق كالسيل، فتحاصر القارئ وترغمه على قبول الحقيقة، والإذعان لمقولاتها المنظورة، وحيثياتها المتشكلة قبالة السمع والبصر والفؤاد.

وما يلبث النورسي، وهو يعاين أسماء الله الحسنى وتجلياتها في الوجود، أن يرفع هذا النداء المؤثر الذي ينطوي على حشد من الدلالات الجمالية: "يا ربي الرحيم.. لقد أدركت.. أن تجليات الأسماء الحسنى - ذات الجلال والجمال - الظاهرة آثارها في هذه الدنيا، وفي العوالم كافة، ستدوم دواماً أسطع وأبهر في أبد الآباد، وأن تجلياتها - ذات الرحمة - وآلاءها المشاهدة نماذجها في هذا العالم الفاني، ستثمر بأبهى نور وأعظم تألق، وستبقى دوماً في دار السعادة. وأن أولئك المشتاقين الذين يحملونها - في هذه الدنيا القصيرة - بلهفة وشوق، سيرافقونها بالمحبة والود، ويصحبونها إلى الأبد، ويظلون معها خالدين.."[1].

والتجلي، بالنسبة التي يطيقها ويستحقها كل شيء في هذا الكون، يجيء بمثابة إضاءة لهذا الكون.. تمضي وتنتشر لكي تلف الكائنات والأماكن والأزمان كلها بألقها الجميل: " نعم، إن مثل هذا التجلي، تجلي الحياة الذي هو ضياء شمس الحياة الأولية، لن ينحصر في عالم الشهادة هذا فقط، ولا في هذا الزمان الحاضر، ولا في هذا الوجود الخارجي، بل لابد أن لكل عالم من العوالم مظهراً من مظاهر تجلي ذلك الضياء حسب قابليته. فالكون إذن بجميع عوالمه، حي ومشع مضيء بذلك التجلي، وإلا لأصبح كل من العوالم - كما تراه عين الضلالة - جنازة هائلة مخيفة تحت هذه الدنيا المؤقتة الظاهرة، وعالماً

---

(١) نفسه ص ١٠٨ - ١٠٩.

خرباً مظلماً.."[1]. لكن الذين ينظرون إلى هذا الكون بنظر العبرة، فإنهم سيستشعرون بوجدانهم وقلوبهم، وبحدس صادق، أن الذي يجمل هذه الكائنات ويزينها بأنواع المحاسن، لاشك أن له جمالاً وكمالاً لا منتهى لهما، ولهذا يظهر الجمال والكمال على فعله[2].

والنورسي يرى أن في فطرة كل واحد منا قد أودعت مفاتيح الأجهزة التي تفتح الكنوز المخفية للأسماء الإلهية الحسنى، فتعرف الله - جل وعلا - بتلك الأسماء - وأن هذه الأسماء ركبت في كل واحد منا، من لطائف تجلياتها وبدائع صنعتها، ما يوجب إظهاره أمام أنظار المخلوقات بجوانبه كافة في معرض الدنيا، وأن على الإنسان أن يتجمل بمزايا اللطائف الإنسانية التي منحته إياها تجليات الأسماء، وإبرازها أمام نظر الشاهد الأزلي جل وعلا " مثله في هذا كمثل الجندي الذي يتقلد الشارات المتنوعة التي منحها السلطان في مناسبات رسمية، ويعرضها أمام نظره ليظهر آثار تكرمه عليه وعنايته به"[3].

وهو يعود في (الكلمة الثالثة والعشرين) لكي يجمل الوظائف الإنسانية وأساسيات العبودية في منظومة من الممارسات التي تنطوي جميعاً على بعد جمالي ملحوظ: التصديق بالطاعة لسلطان الربوبية الظاهر في الكون، والنظر إلى كماله سبحانه ومحاسنه بإعجاب وتعظيم. ثم استنباط العبرة والدروس من بدائع نقوش أسمائه الحسنى القدسية ونشرها وإشاعتها. ثم وزن جواهر

(١) نفسه ص ١٢٠.
(٢) نفسه ص ٧٤٢.
(٣) نفسه ص ١٣٨.

الأسماء الربانية ودررها.. بميزان الإدراك والتبصر وتقييمها بأنوار التقدير والعظمة النابعة من القلب، ثم التفكر بإعجاب عند مطالعة أوراق الأرض والسماء وصحائف الموجودات التي هي بمثابة كتابات قلم القدرة. ثم النظر باستحسان بالغ إلى زينة الموجودات والصنائع الجميلة. اللطيفة التي فيها، والتحبب لمعرفة الفاطر ذي الجمال والتلهف إلى الصعود إلى مقام حضور عند الصانع ذي الكمال ونيل التفاته الرباني"(1).

إن المؤمن الحق يرى كيف أن جليلاً جميلاً يظهر في مرآة الموجودات كبرياءه وعظمته وكماله، ويبرز جلاله وجماله، بحيث يجلب إليها الأنظار.. لن يكون أمامه سوى أن يردد "الله أكبر، سبحان الله" و "يسجد سجود من لا يمل، بكل حيرة وإعجاب، وبمحبة ذائبة في الفناء"(2). إن الإنسان بمثل هذه العبادة والتفكر يصبح إنساناً حقاً.. ويصير لائقاً للأمانة الكبرى وخليفة أميناً على الأرض(3).

بل إن النورسي يدعونا للإنصات إلى كل كائن في هذا الوجود ولسوف نسمعه يرفع النداء إلى الله سبحانه ذي الجلال والجمال.. البحر الهائج والأرض المهتزة بالزلازل تناديان: يا جليل يا جليل.. فراخ الحيوانات في البحر والأرض تترنم: يا جميل يا جميل.. السماء تنادي: يا جليل ذو الجمال.. الأرض تردد: يا جميل ذو الجلال.. الربيع وهو يجأر بالدعاء: يا مصور، يا منور، يا محسن، يا مزين " وأسال إنساناً هو حقاً إنسان وشاهد كيف يقرا

---

(1) نفسه ص ٣٧٢.
(2) نفسه ص ٣٧٣.
(3) نفسه ص ٣٧٣.

جميع الأسماء الحسنى، فهي مكتوبة على جبهته، حتى إذا أنعمت النظر ستقرؤها أنت بنفسك. وكأن الكون كله موسيقى متناغمة الألحان لذكر عظيم. فامتزاج أصغر نغمة وأوطئها مع أعظم نغمة وأعلاها ينتج لحناً لطيفاً مهيباً"[1].

كما أن النورسي يذكرنا في أكثر من موضع بحقيقة " أن الصنائع الموزونة، المنتظمة الجميلة تستند إلى برنامج في غاية الحسن والإتقان، والبرنامج الكامل المتقن الجميل يستند إلى علم جميل، وإلى ذهن حسن، وإلى قابلية روحية كاملة وهذا يعني أن الجمال المعنوي للروح يظهر في الصنعة بالعلم. فهذه الكائنات وما فيها، مع جميع محاسنها المادية التي لا تعد ولا تحصى، ما هي إلاّ ترشحات محاسن معنوية وعلمية، وتلك المحاسن والكمال العلمي والمعنوي لاشك أنها جلوات حسن وجمال وكمال سرمدي. ومن المعلوم أن المشع للنور يستلزم أن يكون متنوراً، وكل مضيء يستلزم أن يكون ذا ضوء، والإحسان يرد من الغنى واللطف يظهر من اللطيف. لذا فإضفاء الحسن والجمال على الكائنات " ومنح الموجودات أنواعاً من الكمالات المختلفة، يدل على جمال سرمدي كدلالة الضوء على الشمس. ولما كانت الموجودات تجري جريان النهر العظيم وتلتمع بالكمال ثم تمضي. فمثلما يلتمع ذلك النهر بجلوات الشمس، فإن سيل الموجودات هذا يلتمع مؤقتاً بلمعات الحسن والجمال والكمال ثم يمضي إلى شأنه. ويفهم من تعاقب اللمعات بأن جلوات حبابات النهر الجاري وجمالها ليست ذاتية، بل هو جمال ضياء شمس منورة وجلواتها. فالمحاسن والكمالات التي تلتمع مؤقتاً على سيل الكائنات،

---

(١) نفسه ص ٣٧٨.

إنما هي لمعات جمال أسماء من هو نور سرمدي. نعم! تفاني المرآة زوال الموجودات مع التجلي الدائم مع الفيض الملازم، من أظهر الظواهر من أبهر البواهر على أن الجمال الظاهر، أن الكمال الزاهر ليسا ملك المظاهر، من أفصح تبيان من أوضح برهان للجمال المجرد للإحسان المحدد، للواجب الوجود للباقي الودود"[1].

[٧]

ويرى النورسي " أن جميع ما في الوجود، والحياة كلها، وعالم الأرواح، وعالم المثال، مرايا شبه شفافة لإظهار جمال ذلك القدوس الجليل الذي صفاته محيطة بكل شيء، وشؤونه شاملة لكل شيء"[2]. بل إن جميع أنواع الحسن والكمال والجمال الموجودة في الكون كله، ما هو إلا ظل ضعيف بالنسبة لكماله الحقيقي[3]. ويتساءل متحدياً: " ترى أي شيء يستطيع أن يتستر عن توجه أحديته التي هي ضمن تجلي صفاته المحيطة وتجلي أفعاله بإرادته الكلية وقدرته المطلقة وعلمه المحيط؟"[4]، ثم يخلص إلى القول بأن "الجليل ذا الجمال، والجميل ذا الكمال.. هو أقرب إليك من كل شيء، وأنت بعيد عنه سبحانه بعداً لا حد له" وأن التحقق بالمقاربة لن يتأتى إلا لمن يملك "قوة في القلب وعلواً في العقل"[5].

---

(١) نفسه ص ٧٤٢ - ٧٤٣.

(٢) نفسه ص ٢١٤.

(٣) نفسه ص ٧٤١.

(٤) نفسه ص ٢١٤.

(٥) نفسه ص ٢١٤.

وتجيء العبادة لتكون معراج المؤمن إلى الله .. "والمثول أمام الجليل ذي الجمال والمعبود ذي الجلال. فأنت عندما تقول (الله أكبر) تمضي معنى وتقطع خيالاً، أو نية، الدنيا والآخرة، حتى تتجرد عن القيود المادية فتصعد مكتسباً مرتبة عبودية كلية.. وتتشرف بنوع من الحضور القلبي والمثول بين يديه تعالى فتنال الحظوة العظمى"[1].

إن معنى العبادة، كما يؤكد النورسي، "هو سجود العبد بمحبة خالصة وبتقدير وإعجاب في الحضرة الإلهية، وأمام كمال الربوبية والقدرة الصمدانية والرحمة الإلهية، مشاهداً بنفسه تقصيره وعجزه وفقره"[2]. هذا المعنى الذي ينطوي على حشد من القيم الجمالية تعكسها المفردات التي يعتمدها النورسي. إننا - مثلاً - نجد أنفسنا قبالة "المحبة الخالصة" و "التقدير" و "الإعجاب" و "الكمال"، ما يجعل الممارسة التعبدية تعين على إغناء الخبرة الجمالية للإنسان في مستوياتها العليا[3].

وتظل أسماء الله الحسنى.. ألف اسم ينطوي على "طبقات حسن وجمال وفضل وكمال كثيرة جداً " بمثابة الوقود الذي يعين على الصعود.. نار العشق التي تشتعل في الحنايا فتدفعها إلى طلب المزيد.. ويصير الكون.. جوهر الكون هو المحبة.. وتتحرك الموجودات بالمحبة.. وتفعل قوانين الانجذاب والجذب والجاذبية فعلها المدهش، فتغمر بالنشوة العليا، الذرات والأفلاك والنجوم والسماوات والشمس والقمر والنباتات والأشجار:

---

(١) نفسه ص ٢١٩.

(٢) نفسه ص ٣٩.

(٣) للمزيد من التفاصيل انظر : المرجع نفسه الصفحات ٤١ - ٤٤.

" كل ذرات الوجود في نشوة المحبة
الفلك نشوان والملك نشوان
النجوم والسماوات نشاوى
القمر والشمس نشوى .. والأرض نشوى
والعناصر والنباتات والأشجار نشاوى ..

بمعنى أن كل شيء نشوان من شراب المحبة بتجلي المحبة الإلهية، كل حسب استعداده. ومن المعلوم أن كل قلب يحب من يحسن إليه، ويحب الكمال الحقيقي، ويعشق الجمال السامي.. ترى ما مدى العشق والمحبة التي تليق بمن له في كل اسم من أسمائه ألف كنز وكنز من الإحسان والأنعام.. ومن هو مبعث ألوف طبقات الجمال..؟ ألا يفهم من هذا مدى الأحقية في نشوة الكون طراً بمحبته؟ ولأجل ذلك ورد في الحديث الشريف ما معناه: أن رؤية جمال الله في الجنة تفوق جميع لذائذ الجنة"[1].

ولا ينسى النورسي أن يشير إلى ما يبدو لأهل الضلال تناقضاً بين تحقير الدنيا وفسادها وقذارتها، وبين كونها مبعث كمال إلهي وحجة له. وبأسلوبه الذي يتقن إدارة المنظور، يتعامل مع المقولة الخاطئة فيلغيها من الحساب، ويؤكد أن الدنيا لها ثلاثة وجوه: "الوجه الأول ينظر إلى أسماء الله الحسنى ويبين آثار تلك الأسماء ونقوشها، وتؤدي الدنيا - بهذا الوجه - وظيفة مرآة لتلك الأسماء بالمعنى الحرفي، فهذا الوجه مكاتيب صمدانية لا تحد، لذا يستحق العشق لا النفور لأنه في غاية الجمال. أما الوجه الثاني فينظر إلى الآخرة، فهو مزرعة الآخرة، مزرعة الجنة، موضع أزهار أزاهير الرحمة

(١) نفسه ص ٧٤٦ - ٧٤٧.

الإلهية. وهذا الوجه جميل كالوجه الأول يستحق المحبة لا التحقير. وأما الوجه الثالث فهو وجه ينظر إلى أهواء الإنسان، ويكون ستار الغافلين، وموضع لعب أهل الدنيا وأهوائهم. هذا الوجه قبيح دميم، لأنه فانٍ زائل، مؤلم، خداع، فالتحقير الوارد في الحديث الشريف، والنفور الذي لدى أهل الحقيقة هو من هذا الوجه. أما ذكر القرآن الكريم للموجودات بأهمية بالغة وإعجاب وإطراء فهو متوجه إلى الوجهين الأولين، وأن الدنيا المرغوب فيها لدى الصحابة الكرام وسائر أولياء الله في الوجهين الأولين"[1].

وبالمقابل فإن أهل الإيمان - بخلاف أهل الضلالة - يعرفون جيداً وظائف السماوات والأرض، ومغزى خلقهما، ويقدرونهما حق قدرهما، ويصدقون حقائقهما، ويفهمون - بالإيمان - ما تفيدان من معانٍ، حيث أنهم كلما تأملوا فيهما قالوا بإعجاب: " ما أجمل خلقهما وما أحسن ما تؤديان من وظائف!"[2].

وثمة فرق كبير بين أن تقول للشيء: "ما أجمل هذا " وبين أن تقول عنه: "ما أجمله خلقاً" أو "ما أجمل خلقه"[3]. ففي الثانية يرد الجمال إلى مبدعه الحقيقي الأوحد، جل في علاه، وبهذا توضع الأشياء في مكانها الحق.. " فتورث لذة حقيقية بلا ألم، وتكون وصالاً حقاً بلا زوال، فضلاً عن أنها محبة مشروعة وشكر لله في اللذة نفسها، وفكر في آلائه في المحبة عينها"[4].

---

(١) نفسه ص ٧٤٧.

(٢) نفسه ص ٧٦٣.

(٣) نفسه ص ٧٦٦، وانظر المرجع نفسه ص ٨٢٠ - ٨٢١.

(٤) نفسه ص ٧٦٦.

إن محبة كهذه لكل ما هو جميل، فضلاً عن أنها تمنح لذة ومتعة، فإنها تفتح السبيل أمام أذواق حب الجمال والشوق إلى الحسن لتتطلع إلى مراتب أذواق أسمى وأرفع: " وتريه هناك كنوز تلك الخزائن النفيسة فيتملاها المرء في نشوة سامية عالية، ذلك لأن هذه المحبة تفتح آفاقاً أمام القلب ليحول نظره من آثار الصانع الجليل إلى جمال أفعاله البديعة، ومن جمال الأفعال إلى جمال أسمائه الحسنى، ومن جمال الأسماء الحسنى إلى جمال صفاته الجليلة، ومن جمال الصفات الجليلة إلى جمال ذاته المقدسة"(١).

إنها، في ختام رحلة الصعود في المراقي العليا " رؤية جمال مقدس، وكمال منزه للذات الجليلة سبحانه وتعالى كما هي ثابتة بالحديث الصحيح: عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن ناساً قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا. قال: فإلهكم ترونه كذا (والحديث بطوله)(٢).. هذه الرؤية التي تساوي ساعة منها ألف ألف سنة من نعيم الجنة. فقد ورد في الحديث الشريف (.. قال: فيكشف الله تبارك وتعالى تلك الحجب، ويتجلى لهم فيغشاهم من نوره شيء لولا أنه قضي عليهم أن لا يحترقوا لاحترقوا مما غشيهم من نوره. قال: ثم يقال لهم: ارجعوا إلى منازلكم. قال: فيرجعون إلى منازلهم وقد خفوا على أزواجهم وخفين عليهم مما غشيهم من نوره تبارك وتعالى. فإذا صاروا إلى منازلهم ترادّ النور وأمكن حتى يرجعوا إلى صورهم

---

(١) نفسه ص ٧٧٢، وأنظر المرجع نفسه ص ٧٧٧.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

التي كانوا عليها. قال: فتقول لهم أزواجهم: لقد خرجتم من عندنا على صورة، ورجعتم على غيرها؟ قال: فيقولون: ذلك بأن الله تبارك وتعالى تجلى لنا فنظرنا منه ما خفينا به عليكم)[1]. ذلك هو النعيم الذي ساعة منه تفوق ألف ألف سنة من حياة الدنيا الهنيئة، كما هو ثابت لدى أهل العلم والكشف بالاتفاق"[2].

"..لقد أتى الجميع مسرعين من كل صوب لمشاهدة حسنك، إنهم بجمالك يتغنجون ويدللون

"يا رب! إن كل حي يتطلع من كل مكان، فينظرون معاً إلى حسنك، ويتأملون في روائع الأرض التي هي معرض صنعك..

فترقص تلك الأشجار.. جذلة من بهجة جمال نقوشك في الوجود ..

لقد تسربلت كل شجرة بسربال العبودية، ومدت مئات أيديها ضارعة أمام عتبات الحضرة الإلهية..

" لكأن هذا الجمال يهز طبقات العشق، بل يمس أعمق الأوتار وأشدها حساسية ..

" إن الأشياء تتوجه إلى تجليات أسماء الصانع الجليل بالتسبيح والتهليل..

أما القلب فإنه يقرأ من النظم الرفيع لهذا الإعجاز سر التوحيد في هذه الأشجار..

---

(١) رواه البزار : انظر : الترغيب والترهيب للحافظ المنذري ٤ / ٥٥٦ .. (الكلمات، ص ٧٧٩ هامش ١).

(٢) الكلمات ص ٧٧٩.

والعقل .. سيفهم أن كل شيء يسبح للصانع الجليل..

" وإذ صارت الأشجار أجساداً، فقد صارت الأوراق.. ألسنة، كل منها تردد.. ذكر الله بـ (هو.. هو..) بمجرد مس الهواء لها ..

جميع الأشياء تقول: (لا إله إلا هو).."[1].

(١) المرجع نفسه، مختارات من الصفحات ٢٤٢ - ٢٤٥.

الفصل السادس

كتاب الله

تمهيد

الإعجاز البلاغـي أو البيـاني أو الأدبي أو اللغـوي أو الفنـي في القـرآن الكريم ينطوي – كما هو معلوم – على جمالياته الخاصـة. وقـد كتـب في ذلـك الكثير، منذ فجر الدراسات القرآنية وحتى اللحظـات الراهنـة. وهـو – مـع ذلك – يتطلب المزيد بالنسبة لكتاب ليس كالكتب وظاهرة جماليـة فريـدة لا تنقضي عجائبها.

النورسي أدلى بدلوه هو الآخر، وكان هذا منطقي تمامـاً بالنـسبة لرجـل تدفقت رسائله المائة والثلاثون مـن نبـع كتـاب الله المـترع عذوبـة وسـخاء، ونسجت كلماتها على هديه.

وهو منطقي – مرة أخرى- لأن خلفيات الفكر النورسي تنـبض بعـشق الجمال، وتراه انعكاساً مدهشاً للإبداع الإلهي في الكون.

وهو – أي النورسي- في وقفيته إزاء كتابي الكون المنظور والمقـروء كـان يولي اهتماماً ملحوظاً ومؤكداً لمتابعة الملامح والتشكيلات والقيم والمفـردات الفنية والجمالية هنا وهناك. إنـه مهنـدس معـماري مـن طـراز أول وإن المـرء ليلمس وهو يجتاز رسائله كافة كيف أن رؤيته للعالم والأشياء والكلمات هـي رؤية مهندس يلمح ببصيرة ثاقبة وخبرة عميقة عنـاصر التـوازن والتنـاظر في معمار الكون الكبير والكلمة المعبرة.

وإذا كنا في فصول أخرى من هذا الكتاب قد تابعنا مرئيات النورسي الجمالية وهو يتعامل مع الكلمات، والكون والعالم، ودنيا الأحياء، والإنسان، وعالم الغيب(1)، فإننا سنحاول هنا أن نؤشر على بعض ما أراد الرجل أن يقوله بخصوص كتاب الله.

ابتداءً، نلحظ كيف أن النورسي تحرك وهو يتعامل مع النص القرآني ومعطياته الجمالية على خطين متوازيين، أو طبقتين تقوم إحداهما على الأخرى. فأما في أولاهما فقد عرض لجملة من الاستنتاجات " التنظيرية " - إذا صح التعبير - بخصوص ما سماه قدماؤنا " البلاغة القرآنية "، وما يسميه المعاصرون القيم الفنية أو الجمالية.

وأما في الثانية فقد نفذ محاولة تطبيقية من خلال تفسيره لعدد من سور القرآن أو مقاطعه أو آياته.

وبمقدور المرء أن يتابع السياق الثاني في كتابات النورسي كلها، وفي كتابي "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز"(2) و "المثنوي العربي النوري"(3) بوجه الخصوص.

والذي يهمنا هنا هو ما أسميناه بالتنظيرات، والتي تنتشر هي الأخرى في رسائله كافة ولكنها تتمركز بالدرجة الأولى في "الكلمات"(4) حيث يخصص ١٢٠ صفحة لتقديم مرئياته عن الموضوع.

---

(١) انظر : الفصول ١ - ٥ من هذا الكتاب.

(٢) تحقيق إحسان قاسم الصالحي، اسطنبول، دار سوزلر للنشر - ١٩٩٤م.

(٣) تحقيق إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، اسطنبول، دار سوزلر للنشر - ١٩٩٤م.

(٤) ترجمة إحسان قاسم الصالحي، اسطنبول، دار سوزلر للنشر - ١٩٩٢م.

عالج النورسي جل المسائل والقيم الفنية والجمالية التي عني بها القدماء والمحدثون في دراساتهم البلاغية والأدبية والفنية واللغوية لكتاب الله، بدء من الجاحظ والزمخشري والسكاكي والجرجاني وصولاً إلى الخولي وسيد قطب وبنت الشاطئ وعشرات بل مئات غير هؤلاء وهؤلاء.. وهو لم يكد يترك واحدة من هذه القيم الفنية دون أن يقف عندها متأملاً، مدققاً، مستدعياً الشاهد الذي يؤكدها.

وبمتابعة للموضوع يمكن أن يضع المرء يديه على المسائل التالية التي عالجها النورسي مستعيناً بحساسيته المرهفة التي كانت تعينه على وضع يده على مظان الجمال في كتاب الله:

١. القيم أو المعطيات البلاغية.
٢. ظاهرة التكرار.
٣. عناصر الخطاب القرآني وطبقات المخاطبين.

(١) القيم أو المعطيات البلاغية

ينطلق النورسي في تعامله مع "البلاغة" القرآنية، وإعجازها، من الخصائص التي أكدها القدماء والمحدثون: جزالة النظم وحسن متانته، وبداعة الأسلوب وغرابته وجودته، وبراعة البيان وتفوقه وصفوته، وقوة المعاني وصدقها، وفصاحة الألفاظ وسلاستها[١]. مؤكداً أن "البيئة" التي تنزل فيها القرآن كانت في أشد حالات فصاحتها الفطرية وبلاغتها المطبوعة تألقاً وتمكناً.

---

(١) الكلمات ص ٤٢٤.

لقد عوض العرب بغياب التدوين ذاكرة حادة، وسلامة في الأداء الشفاهي جعلتهم يتعاملون مع "الكلمة" في سويتها التي لا يشوبها دخل. ولقد عبر شعرهم، ومعلقاتهم السبع التي وضعت على جدار الكعبة، عن المستوى "البلاغي" العالي الذي بلغوه. فلما تحداهم القرآن أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة واحدة، وعجزوا عن الاستجابة، كان هذا بحد ذاته تأكيداً لمعجزة القرآن[1].

كان هناك - كما يقول النورسي- دافعان في غاية القوة لمعارضة **القرآن** والإتيان بمثله. أولهما حرص الأعداء على معارضة كهذه، وثانيهما شغف الأصدقاء بتقليده. والنتيجة: لا شيء. وأصبحت محاولة كمحاولة مسيلمة الكذاب، رغم أنه من أصحاب البلاغة، مثلا يتندر به المتندرون وصورة من صور الهذيان الذي لا يستحق الالتفات.

بعدها يبدأ النورسي بتحليل عناصر الإعجاز البلاغي الخمسة فيبدأ بالنظم هذا الذي وقف عنده طويلاً في كتابه المعروف " إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ". ويضرب لذلك مثلاً: عقارب الساعة العادة للثواني والدقائق والساعات والتي يكمل كل منها نظام الآخر كذلك النظم في هيئات كل جملة من جمل القرآن، والنظام الذي في كلماته والانتظام الذي في مناسبة الجمل كل اتجاه الآخر"[2].

إن النورسي يوظف هنا بعض معطيات ما يسميه المحدثون بنظرية النظم التي بلغت على يد عبد القاهر الجرجاني أقصى حالات اكتمالها في كتابيه

---

(١) انظر بالتفصيل : الكلمات ص ٢٤٢ - ٤٢٦، ٥١٨ - ٥١٩، ٥٢٢.

(٢) نفسه ص ٤٢٦.

المعـروفين (أسرار البلاغـة) و (دلائـل الإعجـاز).. متابعـة الارتبـاط أو العلاقات الداخلية – إذا صح التعبير – في نسيج النص القرآني بين الكلـمات والجمل والتعـابير والأنـساق، فـيما عـده الـبعض جهـداً بنيويـاً بـشكل مـن الأشكال.

وفي تفسيره لسورة البقرة في (إشارات الإعجاز) نفـذ النـورسي محاولـة تطبيقية لنظرية النظم هذه في بعض جوانبها، ولكنـه في (الكلـمات)[1] يكتفـي بشواهد محددة فحسب حيث لا يتسع المجال للاستفاضة. ومن هذه الشواهد تفـسيره لقولـه تعـالى: ﴿وَلَـئِنْ مَـسَّتْهُمْ نَفْحَـةٌ مِـنْ عَـذَابِ رَبِّـكَ﴾ (سـورة الأنبياء:٤٦). حيث يقول: " هـذه الجملـة مـسوقة لإظهـار هـول العـذاب، ولكن بإظهار التأثير الشديد لأقله، ولهذا فإن جميع هيئات الجملة التـي تفيـد التقليل تنظر إلى هذا التقليل وتمده بالقوة كي يظهر الهول: فلفـظ (لـئن) هـو للتشكيك، والشك يوحي القلة. ولفظ (مس) هـو إصـابة قليلـة يفيـد القلـة أيضاً. ولفظ (نفحة) مادته رائحة قليلة، فيفيد القلة، كما أن صيغته تـدل عـلى واحدة، أي واحدة صغيرة، كـما في التعبـير الـصرفي – مـصدر المـرة – فيفيـد القلة. وتنوين التنكير في (نفحة) هي لتقليلها، بمعنى أنها شيء صغير إلى حـد لا يعلم فينكر. ولفظ (من) هو للتبعيض، بمعنى جزء، فيفيـد القلـة. ولفـظ (عذاب) هو نوع خفيف من الجزاء بالنسبة إلى النكـال والعقـاب، فيـشير إلى القلة. ولفظ (ربك) بدلاً من: القهار، الجبار، المنتقم، فيفيد القلة أيضاً وذلك بإحساسه الشفقة والرحمة. وهكذا تفيد الجملة أنه: إذا كـان العـذاب شـديداً ومؤثراً مع هذه القلة، فكيف يكون هول العقاب الإلهـي؟ فتأمـل في الجملـة

(١) وهو المجلد الذي اعتمد في كتابة هذا الفصل.

لترى كيف تتجاوب الهيئات الصغيرة، فيعين كل الآخر، فكل يمد المقصد لجهته الخاصة"[1].

ولا ينسى النورسي أن يشير إلى الأسباب التي قد تخل في الحالات الاعتيادية بقدرة الخطاب على الاحتفاظ بسلامة (نظمه) من الخلل والاضطراب. أما في كتاب الله فان الإعجاز القرآني يعرف كيف يتمثلها ويطويها.

فهناك ما يقارب تسعة أسباب " إذ أن القرآن المبين نزل في ثلاث وعشرين سنة نجماً نجماً لمواقع الحاجات نزولاً متفرقاً متقطعاً، مع أنه يظهر من التلاؤم الكامل كأنه نزل دفعة واحدة. وأيضاً أنه نزل في ثلاث وعشرين سنة لأسباب نزول مختلفة متباينة، مع أنه يظهر من التساند التام كأنه نزل لسبب واحد. وأيضاً أنه جاء جواباً لأسئلة مكررة متفاوتة، مع أنه يظهر من الامتزاج التام والاتحاد الكامل كأنه جواب عن سؤال واحد، وأيضاً أنه جاء بياناً لأحكام حوادث متعددة متغايرة، مع أنه يبين من الانتظام الكامل كأنه بيان لحادثة واحدة. وأيضاً أنه نزل متضمناً لتنزلات كلامية إلهية في أساليب تناسب أفهام مخاطبين لا يحصرون، ومن حالات من التلقي متخالفة متنوعة، مع أنه يبين من السلاسة اللطيفة والتماثل الجميل كأن الحالة واحدة والفهم واحد، حتى تجري السلاسة كالماء السلسبيل. وأيضاً أنه جاء مكلماً متوجهاً إلى أصناف متعددة متباعدة من المخاطبين، مع أنه يظهر من سهولة البيان وجزالة النظام ووضوح الأفهام كأن المخاطبين صنف واحد بحيث يظن كل صنف أنه المخاطب وحده بالأصالة. وأيضاً أنه نزل هادياً وموصلاً إلى

---

(١) الكلمات ص ٤٢٦ - ٤٢٧.

غايات إرشادية متدرجة متفاوتة، مع أنه يبين من الاستقامة الكاملة والموازنة الدقيقة والانتظام الجميل كأن المقصد واحد. فهذه الأسباب مع أنها أسباب للتشويش واختلال المعنى والمبنى إلا أنها استخدمت في إظهار إعجاز بيان القرآن وسلاسته وتناسبه.."[1].

المعنى هو العنصر الآخر في الإعجاز البلاغي للقرآن ..

تصور نفسك -يقول النورسي- " قبل مجيء نور القرآن، في ذلك العصر الجاهلي، وفي صحراء البداوة والجهل، فبينما تجد كل شيء قد أسدل عليه ستار الغفلة وغشيه ظلام الجهل ولف بغلاف الجمود والطبيعة، إذا بك تشاهد بصدى قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لله مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(سورة الحديد:١) أو ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ (سورة الإسراء:٤٤). قد دبت الحياة في تلك الموجودات الهامدة أو الميتة بصدى (سبح) و (تسبح) في أذهان السامعين فتنهض مسبحة ذاكرة لله. وأن وجه السماء المظلمة التي تستعر فيها نجوم جامدة، والأرض التي تدب فيها مخلوقات عاجزة، تتحول في نظر السامعين بصدى (تسبح) وبنوره إلى فم ذاكر لله، كل نجم يشع نور الحقيقة يبث حكمة حكيمة بالغة. ويتحول وجه الأرض بذلك الصدى السماوي ونوره إلى رأس عظيم، والبر والبحر، لسانين يلهجان بالتسبيح والتقديس وجميع النباتات والحيوانات كلمات ذاكرة مسبحة حتى لكأن الأرض كلها تنبض بالحياة "[2].

---

(١) نفسه ص ٤٨١ - ٤٨٢.

(٢) الكلمات ص ٤٢٩ - ٤٣٠.

إن معاني القرآن كلها، بفضاءاتها الفسيحة، يقدمها الخطاب القرآني للناس في كل زمن ومكان بأسلوبياته المتميزة التي هي وحدها كفاء لمضامين هذا الخطاب.

وهذا ينقلنا إلى العنصر الثالث في الإعجاز البلاغي لكتاب الله: الأسلوب.. إنه غريب وبديع، كما هو عجيب ومقنع " لم يقلد أحداً قط ولا يستطيع أحد أن يقلده. ولقد حافظ وما يزال يحافظ على طراوته وشبابيته وغرابته مثلما نزل أول مرة "[1].

وكعادته يضرب النورسي على ذلك الأمثال: " إن سورة النبأ: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾.. إذا أنعم النظر فيها فإنها تصف وتثبت أحوال الآخرة والحشر والجنة وجهنم بأسلوب بديع يطمئن القلب ويقنعه، حيث تبين أن ما في هذه الدنيا من أفعال إلهية وآثار ربانية متوجهة إلى كل من تلك الأحوال الآخروية. ولما كان إيضاح أسلوب السورة كلها يطول علينا، فسنشير إلى نقطة أو نقطتين منه:

"تقول السورة في مستهلها إثباتاً ليوم القيامة: لقد جعلنا الأرض لكم مهداً قد بسط بسطاً جميلاً زاهياً، والجبال أعمدة وأوتاداً مليئة بالخزائن لمساكنكم وحياتكم، وخلقناكم أزواجاً تتحابون فيما بينكم ويأنس بعضكم ببعض. وجعلنا الليل ساتراً لكم لتخلدوا إلى الراحة، والنهار ميداناً لمعيشتكم، والشمس مصباحاً مضيئاً ومدفئاً لكم. وأنزلنا من السحب لكم ماءً باعثاً على الحياة يجري مجرى العيون. وننشئ بسهولة من ماء بسيط أشياء

---

(١) نفسه ص ٤٣١.

شتى من مزهر ومثمر يحمل أرزاقكم. فإذا يوم الفصل - وهو يوم القيامة - ينتظركم. وأن إتيانه ليس بعسير علينا.

"وبعد ذلك يشير إشارة خفية إلى إثبات ما يحدث في يوم القيامة من سير الجبال وتناثرها، وتشقق السماوات وتهيؤ جهنم، ومنح الجنة أهلها الرياض الجميلة. وكأنه يقول: إن الذي يفعل هذه الأفعال في الجبال والأرض بمرأى منكم سيفعل مثلها في الآخرة. أي أن ما في السورة تشير إلى رياض الجنة في الآخرة. فقس سائر النقاط على هذا لتشاهد علو الأسباب ومدى لطافته"(١).

وفي مكان آخر يقف النورسي طويلاً عند إحدى الخصائص الأسلوبية للقرآن، تلك هي "جامعيته " المثيرة للدهشة " حتى أن سورة واحدة تتضمن بحر القرآن العظيم الذي ضم الكون بين جوانحه. وأن آية واحدة تضم خزينة تلك السورة. وأن أكثر الآيات - كل منها - كسورة صغيرة، وأكثر السور - كل منها - كقرآن صغير. فمن هذا الإيجاز المعجز ينشأ لطف عظيم للإرشاد وتسهيل واسع جميل. لأن كل إنسان على الرغم من حاجته إلى تلاوة القرآن كل وقت فانه قد لا يتاح له تلاوته.. فلكي لا يحرم أحد من القرآن فإن كل سورة في حكم قرآن صغير. بل كل آية طويلة في مقام سورة قصيرة، حتى أن أهل الكشف متفقون أن القرآن في الفاتحة، والفاتحة في البسملة. أما البرهان على هذا فهو إجماع أهل التحقيق العلماء"(٢).

أما العنصر الرابع فهو " اللفظ ": "نعم، أن القرآن كما هو بليغ خارق من حيث أسلوبه وبيان معناه، فهو فصيح في غاية السلاسة في لفظه، والدليل

---

(١) نفسه ص ٤٣٢ - ٤٣٣.

(٢) نفسه ص ٤٥٩ - ٤٦٠.

القاطع على فصاحته هو عدم ايراثه السأم والملل، كما أن شهادة علماء في البيان والمعاني برهان باهر على حكمة فصاحته".

ويمضي النورسي إلى القول بأنه "لو كرر ألوف المرات فإنه لا يورث سأماً ولا مالاً . بل يزيد لذة وحلاوة. ثم انه لا يثقل على ذهن صبي بسيط فيستطيع حفظه، ولا تسأم منه أذن المصاب بداء عضال الذي يتأذى بأدنى كلام بل يتلذذ به وكأنه الشراب العذب"(١).

ويبحث النورسي عن الأسباب وراء تألق اللفظ القرآني ويقول: "إن القرآن قوت وغذاء للقلوب، وقوة وغذاء للعقول، وماء وضياء للأرواح، ودواء وشفاء للنفوس، لذا لا يمل.. انه حق وحقيقة وصدق وهدى"(٢). ويضرب على ذلك مثلا آية واحدة من سورة آل عمران: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (سورة آل عمران: ١٥٤).

" لقد جمعت هذه الآية جميع حروف الهجاء وأجناس الحروف الثقيلة، ومع ذلك لم يفقدها هذا الجمع سلاستها بل زادها بهاءً إلى جمالها، ومزج نغمة من الفصاحة نبعت من أوتار متناسبة متنوعة".

---

(١) نفسه ص ٤٣٦.

(٢) نفسه ص ٤٣٧.

"فانعم النظر في هذه اللمعة ذات الإعجاز وهي: أن الألف والياء لأنهما أخف حروف الهجاء، وتنقلب إحداهما بالأخرى كأنهما أختان، ويمكن أن تحل إحداهما محل الأخرى، فقد ذكر كل منهما ثلاثاً وثلاثين مرة. وأن الصاد والسين والشين، متآخية حسب المخرج والصفة والصوت فذكر كل واحد منها ثلاث مرات. وأن العين والغين متآخيتان فذكر العين ست مرات لخفتها بينما الغين لثقلها ذكرت ثلاث مرات أي نصفه. وان الطاء والضاء والذال والزاي متآخية حسب المخرج والصفة والصوت، فذكر كل واحد منها مرتين. وأن اللام والألف متحدتان في صورة (لا) وأن حصة الألف نصف في صورة (لا) فذكرت اللام اثنتين وأربعين مرة وذكرت الألف - نصفه- إحدى وعشرين مرة... وهكذا فإن هذه الحروف بهذا الوضع المنتظم الخارق، مع تلك المناسبات الخفية، والانتظام الجميل، والنظام الدقيق، والانسجام اللطيف، تثبت بيقين جازم كحاصل ضرب اثنين في اثنين يساوي أربعاً: انه ليس من شأن البشر ولا يمكن أن يفعله. أما المصادفة فمحال أن تلعب به.."[1].

وما دام النورسي يتعامل ها هنا مع (الألفاظ) فانه يجد نفسه ملزماً بالرجوع كرة أخرى إلى "النظم" القرآني الفريد: " نعم، إن الألفاظ القرآنية قد وضعت وضعاً بحيث أن لكل كلام بل لكل كلمة بل لكل حرف بل حتى السكون أحياناً وجوهاً كثيرة جداً، تمنح كل مخاطب حظه ونصيبه من أبواب مختلفة. فمثلاً: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (سورة النبأ:٧). فحصة عامي من هذا الكلام أنه: يرى الجبال كالأوتاد المغروزة في الأرض كما هو ظاهر أمام عينه، فيتأمل

(١) الكلمات ص ٤٣٧ - ٤٣٨.

ما فيها من نعم وفوائد ويشكر خالقه. وحصة شاعر من هذا الكلام أنه: يتخيل أن الأرض سهل منبسط، وقبة السماء عبارة عن خيمة عظيمة خضراء ضربت عليه، وزينت الخيمة بمصابيح، وأن الجبال تتراءى وهي تملأ دائرة الأفق، تمس قممها أذيال السماء، وكأنها أوتاد تلك الخيمة العظيمة، فتغمره الحيرة والإعجاب ويقدس الصانع الجليل.

"أما البدوي البليغ فحصته من هذا الكلام أنه: يتصور سطح الأرض كصحراء واسعة، وكأن سلاسل الجبال سلسلة ممتدة لخيم كثيرة بأنواع شتى لمخلوقات متنوعة، حتى أن طبقة التراب عبارة عن غطاء ألقي على تلك الأوتاد المرتفعة فرفعتها برؤوسها الحادة، جاعلة منها مساكن مختلفة لأنواع شتى من المخلوقات. وكذا يفهم فيسجد للفاطر الجليل سجدة حيرة وإعجاب بجعله تلك المخلوقات العظيمة كأنها خيام ضربت على الأرض.

"أما الجغرافي الأديب فحصته من هذا الكلام أن: كرة الأرض عبارة عن سفينة تمخر عباب بحر المحيط الهوائي أو الأثيري. وأن الجبال أوتاد دقت على تلك السفينة للتثبيت والموازنة. هكذا يفكر الجغرافي ويقول أمام عظمة القدير ذي الكمال الذي جعل الكرة الأرضية الضخمة سفينة منتظمة وأركبنا فيها، لتجري بنا في آفاق العالم: (سبحانك ما أعظم شأنك)!.

"أما المتخصص في أمور المجتمع والملم بمتطلبات الحضارة الحديثة فحصته من هذا الكلام أنه: يفهم الأرض عبارة عن مسكن، وأن عماد حياة هذا المسكن هو حياة ذوي الحياة، وأن عماد تلك الحياة هو الماء والهواء والتراب التي هي شرائط الحياة. وأن عماد هذه الثلاثة هو الجبال، لأن الجبال مخازن الماء، مشاطة الهواء ومصفاته - إذ ترسب الغازات المضرة- وحامية

التراب - إذ تحميه من استيلاء البحر والتوحل- وخزينة لسائر ما تقتضيه حياة الإنسان. هكذا يفهم فيحمد ويقدس ذلكم الصانع ذا الجلال والإكرام الذي جعل هذه الجبال العملاقة أوتاداً ومخازن معايشنا على الأرض التي هي مسكن حياتنا.

"وحصة فيلسوف طبيعي من هذا الكلام: أنه يدرك أن الامتزاجات والانقلابات والزلازل التي تحصل في باطن الأرض تجد استقرارها وسكونها بظهور الجبال، فتكون الجبال سبباً لهدوء الأرض واستقرارها حول محورها ومدارها وعدم عدولها عن مدارها السنوي وكأن الأرض تتنفس بمنافذ الجبال فيخف غضبها وتسكن حدتها. هكذا يفهم ويطمئن ويلج في الإيمان قائلاً: الحكمة لله"[1].

أما العنصر الخامس وهو البيان فيقف عنده طويلاً باعتباره جماع العناصر كافة.

إنه أعلى مرتبة من مراتب طبقات الخطاب وأقسام الكلام: كالترغيب والترهيب، والمدح والذم، والإثبات والإرشاد، والإفهام والإفحام[2].

وهو يضرب لكل غرض من هذه الأغراض مثلاً أو أثنين لتأكيد تفرد البيان القرآني: "فمن بين آلاف أمثلة مقام (الترغيب والتشويق) سورة (الإنسان) إذ بيان القرآن في هذه السورة سلس ينساب كالسلسبيل، ولذيذ كثمار الجنة، وجميل كحلل الحور العين. ومن بين الأمثلة التي لا تحد لمقام (الترهيب والتهديد) مقدمة سورة (الغاشية) إذ بيان القرآن في هذه السورة

(١) الكلمات ص ٤٥٢ - ٤٥٣.

(٢) نفسه ص ٤٣٩.

يؤثر تأثير غليان الرصاص في صماخ الضالين، ولهيب النار في عقولهم، وكالزقوم في حلوقهم، وكلفح جهنم في وجوههم، وكالضريع الشائك في بطونهم. نعم، إن كانت مأمورة العذاب جهنم ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾(سورة الملك:٨) فكيف يكون تهديد وترهيب آمرها بالعذاب ؟

"ومن بين آلاف أمثلة مقام (المدح) السور الخمس المستهلة بـ (الحمد لله) إذ بيان القرآن في هذه السور ساطع كالشمس، مزين كالنجوم، مهيب كالسماوات والأرض، محبوب مأنوس كالملائكة، لطيف رؤوف كالرحمة على الصغار في الدنيا، وجميل بهيج كالجنة اللطيفة في الآخرة.

"ومن بين آلاف أمثلة مقام (الذم والزجر) الآية الكريمة: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾(سورة الحجرات:١٢).

"تنهي هذه الآية الكريمة عن الغيبة بست مرات وتزجر عنها بشدة وعنف، وحيث أن خطاب الآية موجه إلى المغتابين فيكون المعنى كالآتي: ان الهمزة الموجودة في البداية، للاستفهام الإنكاري حيث يسري حكمه ويسيل كالماء إلى جميع كلمات الآية، فكل كلمة منها تتضمن حكماً. ففي الكلمة الأولى تخاطب الآية الكريمة بالهمزة: أليس لكم عقل - وهو محل السؤال والجواب - ليعي هذا الأمر القبيح؟ وفي الكلمة الثانية: (أيحب) تخاطب الآية بالهمزة. وفي الكلمة الثالثة: (أحدكم) تخاطب بالهمزة: ماذا جرى لحياتكم الاجتماعية - التي تستمد حيويتها من حيوية الجماعة - وما بال مدنيتكم وحضارتكم حتى أصبحت ترضى بما يسمم حياتكم ويعكر صفوكم. وفي الكلمة الرابعة (أن يأكل لحم) تخاطب بالهمزة: ماذا أصاب إنسانيتكم؟ حتى أصبحتم تفترسون صديقكم الحميم. وفي الكلمة الخامسة: (أخيه) تخاطب بالهمزة:

أليس بكم رأفة ببني جنسكم، أليس لكم صلة رحم تربطكم معهم، حتى أصبحتم تفتكون بمن هو أخوكم من عدة جهات، وتنهشون شخصه المعنوي المظلوم نهشاً قاسياً، أيملك عقلاً من يعض عضواً من جسمه؟ أو ليس هو بمجنون؟ وفي الكلمة السادسة: (ميتاً) تخاطب بالهمزة: أين وجدانكم؟ أفسدت فطرتكم حتى أصبحتم تجترحون أبغض الأشياء وأفسدها - وهو أكل لحم أخيكم - في الوقت الذي هو جدير بكل احترام وتوقير"[1].

ثم يخلص النورسي إلى القول بأن هذه الآية يفهم منها " وبما ذكرناه من دلائل مختلفة في كلماتها، ان الغيبة مذمومة عقلاً وقلباً وإنسانية ووجداناً وفطرة وملة. فتدبر هذه الآية الكريمة، وأنظر كيف أنها تزجر عن جريمة الغيبة بإعجاز بالغ وبإيجاز شديد"[2].

(٢) التكرار

ليس القرآن الكريم عملاً (بحثياً) يسعى للتعامل مع مشكلة ما أو قضية محددة، فيحاول استقصاء مفرداتها ودراستها وتحليلها والوصول إلى النتائج بأكبر قدر من التركيز والاقتصاد في اللغة، كما هو شأن الدراسات المعروفة في دائرة ما يصطلح عليه بالعلوم الإنسانية، ولكنه خطاب عقدي وتشريعي ودعوي ينطوي على التأسيسات العقدية، والمعطيات التشريعية، وأساليب النشاط الدعوي. وهو من أجل تأكيد مطالبه وإضاءتها يتعامل مع المنظور

---

(١) الكلمات ص ٤٣٩ - ٤٤٠.

(٢) نفسه ص ٤٤٠ - ٤٤١.

الكوني أو الطبيعي حيناً، ومع الخبرة التاريخية حيناً آخر، ومع المؤثرات العقلية أو الحسية أو الوجدانية حيناً ثالثاً. ويتجاوز هذا كله في حالات أخرى إلى ما وراء الزمن والمكان والمنظور باتجاه يوم الحساب، بمتغيراته وأهواله، بنعيمه وعذابه، وبجنته وناره...

ومن ثم يغدو التكرار ليس "زيادات" في التعبير، وتبذيراً في اللغة لا مبرر لها، وحاشا لكتاب الله، وإنما ضرورة منهجية وأسلوبية في الوقت نفسه.. ويعاد عرض "اللقطة" أو "الحالة" أو "الخبرة" أو "التجربة" مرة ومرتين وثلاثاً لتحقيق غرض مقصود هو تأكيد القيمة المطلوبة، بكسر جدران الغفلة والنسيان، وحواجز الألفة والاعتياد وأكداس الرين والصدأ.

إنها - إذا جاز التشبيه - أشبه بعملية غسيل عقلي وروحي ووجداني وحسي، حيث يسكب الماء المطهر مرتين وثلاثاً من أجل إعادة الخبرة البشرية إلى نبضها وألقها ودهشتها وانفعالها قبالة العالم والوجود والطبيعة والكون والتاريخ والأبدية.

هذا إلى أن التكرار القرآني، وفق المنطوق الفني الصرف، ليس في حقيقته تكراراً نمطياً يعيد المفردات والوقائع والمرئيات نفسها المرة تلو المرة، ولكنه تحويل لزاوية الرؤية من مكان إلى مكان، وتقديم معطيات جديدة - أو في الأقل- إتاحة الفرصة لمشاهدة جوانب مضافة من "الحالة" التي تتعامل معها كلمات الله.

إنها - إذا جازت التسمية - نوع من السيناريو ذي اللقطات المتنوعة التي يمكن بترتيبها وفق منظور زمني، أو موضوعي، أو مكاني، أن تعطي القارئ عرضاً متكاملاً مترعاً بالتفاصيل والمتغيرات.

فإذا انتقلنا إلى الدائرة الثالثة، وهي الدائرة الأدبية أو البلاغية الصرفة، وجدنا التكرار صيغة جمالية أو أسلوباً بلاغياً يتفق النقاد على ضرورته في الخطاب الأدبي لتحقيق جملة مقاصد تستهدف خدمة هذا الخطاب.

ولقد كتب في ظاهرة التكرار القرآني هذه، الكثير، وكان النورسي أحد الذين أدلوا بدلوهم في الموضوع على طريقته المتميزة.

إنه يلحظ – ابتداءً – كيف أن الخطاب القرآني يتوجه إلى طبقات شتى من المخاطبين، وبما أنه كتاب دعوة وعقيدة، فإن التكرار يغدو ضرورياً لتحقيق مقاصده وتأكيدها، ليس هذا فحسب، بل إنه يصير جزءً من النسيج البلاغي للقرآن، لكونه الأسلوب الملائم للخطاب.

إن القرآن الكريم، يقول النورسي: "يظهر نوعاً من إعجازه البديع في تكراره البليغ لجملة واحدة، أو لقصة واحدة، وذلك عند إرشاد طبقات متباينة من المخاطبين إلى معان عدة وعبر كثيرة في تلك الآية أو القصة، فاقتضى التكرار حيث أنه كتاب دعاء ودعوة، كما أنه كتاب ذكر وتوحيد. وكل من هذا يقتضي التكرار. فكل ما كرر في القرآن الكريم – إذا – من آية أو قصة إنما يشتمل على معنى جديد وعبرة جديدة"(١).

ثم إن تكرار الحاجة يستلزم التكرار " هذه قاعدة ثابتة – كما يؤكد النورسي – لذا فقد أجاب القرآن الكريم عن أسئلة مكررة كثيرة خلال عشرين سنة فأرشد بإجاباته المكررة طبقات كثيرة متباينة من المخاطبين. فهو يكرر جملاً تملك ألوف النتائج، ويكرر إرشادات هي نتيجة لأدلة لا حد لها،

---

(١) نفسه ص ٥٢٨.

وذلك عند ترسيخه في الأذهان وتقريره في القلوب ما سيحدث من انقلاب عظيم وتبدل رهيب في العالم وما سيصيبه من دمار وتفتت الأجزاء، وما سيعقبه من بناء الآخرة الخالدة بدلاً من هذا العالم الفاني"(١).

وقد تقتضي بعض المعاني والقيم والحقائق تكراراً لكشفها وتأكيدها من مثل حاكمية الله سبحانه وتحريمه الظلم، فهو " يكرر الجمل والآيات - مثلاً - عند إثباته أن جميع الجزئيات والكليات ابتداءً من الذرات إلى النجوم إنما هي في قبضة واحد أحد سبحانه وضمن تصرفه جل شأنه "وهو يكررها" عند بيان الغضب الإلهي والسخط الرباني على الإنسان المرتكب للمظالم عند خرقه الغاية من الخلق، تلك المظالم التي تثير هيجان الكائنات والأرض والسماء والعناصر وتؤجج غضبها على مقترفيها"(٢).

هنالك - أيضاً - حقائق وظواهر لا تقل خطورة تقتضي الكشف بالتأكيد والتكرار، وتظل تتطلب المزيد. ومن هذه الحقائق الانقلاب الكوني العظيم الذي تطوى به صفحة الحياة الدنيا: "فلو قام القرآن الكريم بتوجيه الأنظار إلى الانقلابات المدهشة في ذلك اليوم، وحمل الآخرين على تصديق تلك المسألة العظيمة.. آلاف المرات فكرر تلك المسائل ملايين المرات، لا يعد ذلك منه إسرافاً في البلاغة قط، كما أنه لا يولد سأماً ولا مللاً البتة، بل لا تنقطع الحاجة إلى تكرار تلاوتها في القرآن الكريم حيث ليس هناك أهم ولا أعظم مسألة في الوجود من التوحيد والآخرة"(٣).

---

(١) نفسه ص ٥٢٨ - ٥٢٩.

(٢) نفسه ص ٥٢٩.

(٣) نفسه ص ٥٣٣ - ٥٣٤.

إنه سعي موصول لإقناع المخاطبين بهذه الحقائق الكبرى وذلك بإقامة الحجج الدامغة، الأمر الذي يعمق في الأذهان والقلوب تلك التحولات العظيمة والتبدلات الضخمة في الكون، "ويجعلها أمامهم سهلة واضحة كتبدل المنزل وتغير شكله. فلابد أن لفت الأنظار إلى هذه المسائل - صراحة وضمناً وإشارة - بألوف المرات ضروري جداً كضرورة الإنسان إلى نعمة الخبز والهواء والضياء التي تتكرر حاجته إليها دائماً"(١).

لذا، مرة أخرى، كان "تكرار تلك الجمل والآيات عند بيان أمثال هذه الأمور العظيمة الهائلة، لا يعد نقصاً في البلاغة قط، بل هو إعجاز في غاية الروعة والإبداع، وبلاغة في غاية العلو والرفعة، وجزالة، بل فصاحة مطابقة تطابقاً تاماً لمقتضى الحال"(٢).

وهو يضرب على ذلك جملة أمثلة كشواهد فحسب مما يحفل به النص القرآني: إن جملة (بسم الله الرحمن الرحيم) هي آية واحدة تتكرر مائة وأربع عشر مرة في القرآن الكريم ذلك لأنها حقيقة كبرى تملأ الكون نوراً وضياءً وتشد الفرش بالعرش برباط وثيق .. فما من أحد إلا هو بحاجة مسيسة إلى هذه الحقيقة في كل حين، فلو تكررت هذه الحقيقة العظمى ملايين المرات، فالحاجة ما زالت قائمة باقية لا ترتوي. إذ ليست هي حاجة يومية كالخبز، بل هي أيضاً كالهواء والضياء الذي يضطر إليه ويشتاق كل دقيقة.

"وإن الآية الكريمة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ تتكرر ثماني مرات في سورة (الشعراء) فتكرار هذه الآية العظيمة التي تنطوي على ألوف الحقائق

---

(١) نفسه ص ٥٣٤.

(٢) نفسه ص ٥٢٩.

في سورة تذكر نجاة الأنبياء عليهم السلام وعذاب أقوامهم، إنما هو لبيان: أن مظالم أقوامهم تمس الغاية من الخلق، وتتعرض إلى عظمة الربوبية المطلقة، فتقضي العزة الربانية عذاب تلك الأقوام الظالمة مثلما تقتضي الرحمة الإلهية نجاة الأنبياء عليهم السلام. فلو تكررت هذه الآية ألوف المرات لما انقضت الحاجة والشوق إليها، فالتكرار هنا بلاغة راقية ذات إعجاز وإيجاز.

"وكذلك الآية الكريمة ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ المكررة في سورة (الرحمن) والآية الكريمة ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ المكررة في سورة المرسلات، تصرخ كل منهما في وجه العصور قاطبة وتعلن إعلاناً صريحاً في أقطار السماوات والأرض أن كفر الجن والإنس وجحودهم بالنعم الإلهية، ومظالمهم الشنيعة، يثير غضب الكائنات ويجعل الأرض والسماوات في حنق وغيظ عليهم .. ويخل بحكمه خلق العالم والقصد منه، ويتجاوز حقوق المخلوقات كافة ويتعدى عليها، ويستخف بعظمة الألوهية وينكرها، لذا فهاتان الآيتان ترتبطان بألوف من أمثال هذه الحقائق، ولهما من الأهمية ما لألوف المسائل وقوتها، لو تكررتا ألوف المرات في خطاب عام موجه إلى الجن والإنس لكانت الضرورة قائمة بعد، والحاجة إليها ما زالت موجودة باقية، فالتكرار هنا بلاغة موجزة جليلة ومعجزة جميلة "(1).

ويخلص النورسي إلى القول " بأننا نرى أمثال هذه الأسس فيما تشتمل عليه أنواع التكرار في القرآن الكريم، حتى نرى أنه يعبر أكثر من عشرين مرة عن حقيقة التوحيد - صراحة أو ضمناً - في صحيفة واحدة من المصحف، وذلك حسب اقتضاء المقام لزوم الحاجة إلى الإفهام، وبلاغة البيان، فيهيج

---

(1) نفسه ص ٥٢٩ - ٥٣٠.

بالتكرار الشوق إلى تكرار التلاوة ويمد به البلاغة قوة وسمواً، من دون أن يورث سأماً أو مللاً "[1].

وليس المعطى القرآني طبقة واحدة وإنما هو طبقات يعلو بعضها بعضاً، ويخفي بعضها بعضاً. والمعنى الواحد فيه ينطوي على منظومة من القيم والمعاني.. إن دلالاته المركزة لا تمنح معانيها – أحياناً – للوهلة الأولى، ولكن بتكرار القول فيها، هذا التكرار الذي لا يجيء تأكيداً فحسب، ولكن إضاءة وكشفاً في الوقت نفسه: " إن كل وقت وكل يوم إنما هو عالم يمضي وباب ينفتح لعالم جديد، لذا فإن تكرار (لا إله إلا الله) بشوق الحاجة إليها ألوف المرات لأجل إضاءة تلك العوالم السيارة كلها وإنارتها بنور الإيمان، يجعل تلك الجملة التوحيدية كأنها سراج منير في سماء تلك العوالم والأيام. فكما أن الأمر هكذا في (لا إله إلا الله) كذلك تلاوة القرآن الكريم فهي تبدد الظلام المخيم على تلك الكثرة الكاثرة من المشاهد السارية، وعلى تلك العوالم السيارة المتجددة، وتزيل التشوه والقبح عن صورها المنعكسة في مرآة الحياة، وتجعل تلك الأوضاع المقبلة شهوداً له يوم القيامة لا شهوداً عليه، وترقيه إلى مرتبة معرفة عظم جزاء الجنايات، وتجعله يدرك قيمة النذر المخفية لسلطان الأزل والأبد التي تشتت عناد الظالمين الطغاة، وتشوقه إلى الخلاص من طغيان النفس الأمارة بالسوء.. فلأجل هذه الحكم كلها يكرر القرآن الكريم ما يكرر في غاية الحكمة، مظهراً أن النذر القرآنية الكثيرة إلى هذا القدر، وبهذه القوة والشدة والتكرار حقيقة عظمى، ينهزم الشيطان من توهمها باطلاً

(١) نفسه ص ٥٣٠.

ويهرب من تخيّلها عبثاً. نعم إن عذاب جهنم لهو عين العدالة لأولئك الكفار الذين لا يعيرون للنذر سمعاً"[1].

ولا ينسى النورسي أن يقف عند قصص الأنبياء (عليهم السلام) وما تتضمنه من التكرار فيرى أن الحكمة – مثلاً – في " تكرار قصة موسى التي لها من الحكم والفوائد ما لعصا موسى، وكذا الحكمة في تكرار قصص الأنبياء إنما هي لإثبات الرسالة الأحمدية وذلك بإظهار نبوة الأنبياء جميعهم حجة على أحقية الرسالة الأحمدية وصدقها، حيث لا يمكن أن ينكرها إلا من ينكر نبوتهم جميعاً. فذكرها إذن دليل على الرسالة. ثم إن كثيراً من الناس لا يستطيعون كل حين ولا يوفقون إلى تلاوة القرآن الكريم كله، بل يكتفون بما تيسر لهم منه. ومن هنا تبدو الحكمة واضحة في جعل كل سورة مطولة ومتوسطة بمثابة قرآن مصغر، ومن ثم تكرار القصص فيها بمثل تكرار أركان الإيمان الضرورية. أي أن تكرار هذه القصص هو مقتضى البلاغة وليس فيه إسراف قط. زد على ذلك فإن فيه تعليماً بأن حادثة ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) أعظم حادثة للبشرية، وأجل مسألة من مسائل الكون"[2].

خلاصة القول في المنظور النورسي للتكرار في كتاب الله سبحانه، أنه – فضلاً عن ضرورته في التعامل مع المضامين القرآنية – فإنه يحمل في الوقت نفسه قيمة جمالية أو بلاغية تجيء متممة لجماليات السياقات المختلفة. ويكفي تدليلاً على دوره المزدوج هذا أن تكرار تلاوة النص القرآني، على ما في مقاطع

---

(١) نفسه ص ٥٣٥.

(٢) نفسه ص ٥٣٥ – ٥٣٦.

النص نفسه من تكرار، لم يورث القارئين يوماً، على مدار الأماكن والأزمان، سأماً أو مللاً، وحاشا لكتاب الله!

إنها خبرة شخصية نعرفها جميعها، ومذاقاً عذباً ارتوينا منه عبر رحلة الليل والنهار.. فما كانت تلاوتنا لكتاب الله، وتعاملنا مع تكراره المدهش، لتزيدنا إلا عطشاً وتوقاً لتلاوته مرات ومرات أخرى. ويكفي - كما يقول النورسي - " أننا نرى كيف أن مئات الملايين من الناس منذ ألف ومئات من السنين يتلون القرآن الكريم بلهفة وشوق، وبحاجة ماسة إليه دون ملل أو سأم"[1]. وهو يؤكد هذا المعنى في مكان آخر بقوله: " إن القرآن الكريم قد أظهر عذوبة وحلاوة ذات أصالة وحقيقة بحيث أن التكرار الكثير - المسبب للسآمة حتى من أطيب الأشياء - لا يورث الملال عند من لم يفسد قلبه ويبلد ذوقه، بل يزيد تكرار تلاوته من عذوبته وحلاوته. وهذا أمر مسلم به عند الجميع منذ ذلك العصر، حتى غدا مضرب الأمثال"[2].

(٣) عناصر الخطاب القرآني وطبقات المخاطبين

يتميز الخطاب القرآني بأنه ذو مستويات شتى سواء بالنسبة لوضع المتلقي الذهني أو النفسي أو الوجداني، أو ثقافته، أو العصر الذي يضطرب فيه.

ويستطيع المرء - أيضاً- أن يلحظ - بشكل عام- خطين متوازيين في هذا الخطاب: أحدهما بيئي مرحلي، والآخر شمولي مستقبلي. وتلك واحدة

---

(١) نفسه ص ٥٣٥.

(٢) نفسه ص ٥٢٠.

من أشد معطيات القرآن إثارة للدهشة والإعجاب، لأنها في جوهرها، واحدة من أكثر حلقاته الإعجازية فرادة وتألقاً!

إن أسباب النزول -مثلاً- كانت تتعامل مع العديد من الآيات والمقاطع والسور القرآنية في ضوء الوضع التاريخي الراهن الذي تنزلت فيه والبيئة التي غذّت مطالبها ومتغيراتها.

ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد، ذلك أن كلمات الله، وهي تتعامل مع التاريخ والجغرافيا، تملك في الوقت نفسه قدرة معجزة على التحرر من أثقالهما والمضي للتعامل مع العالم كله، والمستقبل البشري حتى حافاته القصوى المطلة على يوم الحساب.

إنه علم الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو يعرف كيف يتعامل مع الآني والأبدي.. مع المحدود والمطلق.. عبر الكلمات والمفردات نفسها التي تشكل خطاباً مزدوجاً يتجاوز أحاديته لكي يصير عاملاً مؤثراً في كل زمن أو مكان، وعبر كل مرحلة تاريخية أو بيئة جغرافية على الإطلاق.

وعلى سبيل المثال، فإنه على المستوى المعرفي قدم القرآن الكريم معطيات وكشوفاً كان العقل العربي يومها قديراً على استيعابها، لكن هذه المعطيات كانت تنطوي في الوقت نفسه، على جملة كشوف وطبقات، تركت رهن تنامي الخبرة البشرية وتزايد النشاط المعرفي عبر تعامله مع الظواهر والنواميس والموجودات والأشياء.

ويكفي أن نرجع إلى محاولة واحدة من بين عشرات المحاولات ومئاتها، تلك المحاولة التي نفذها العالم الفرنسي (موريس بوكاي) بخصوص المقارنة

بين المعطيات المعرفية للتوراة والإنجيل والقرآن، وبين المعرفة الحديثة، على مدى ما يزيد عن العشرين عاماً لكي يخلص إلى القول بأنه إذا كانت التوراة والإنجيل تعكس بأمانة الكثير من الخرافات التي كانت منتشرة زمن تدوين هذين النصين، فإنه " لا مكان مطلقاً في نص القرآن لأي خرافة من الخرافات التي كانت منتشرة في عصر تنزيل القرآن"(١).

ويشير بوكاي إلى منهج العمل " في البداية لم يكن لي أي إيمان بالإسلام. وقد طرقت دراسة هذه النصوص - ويعني الكتب الدينية الثلاثة - بروح متحررة من كل حكم مسبق وبموضوعية تامة"(٢).. والنتيجة ؟ أن الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن " أثارت دهشتي العميقة. فلم أكن اعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقة تماماً للمعارف العلمية الحديثة، وذلك في نص كتب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً"(٣) والحق - كما يستنتج الرجل- " أن مفسري القرآن (بما في ذلك مفسرو عصر الحضارة الإسلامية العظيم) قد أخطأوا حتماً وطيلة قرون في تفسير بعض الآيات التي لم يكن باستطاعتهم أن يفطنوا إلى معناها الدقيق. إن ترجمة هذه الآيات وتفسيرها بشكل صحيح لم يكن ممكناً إلا بعد ذلك العصر بكثير، أي في عصر قريب منا. ذلك يتضمن أن المعارف اللغوية المتبحرة لا تكفي وحدها لفهم هذه الآيات القرآنية، بل يجب بالإضافة إليها امتلاك معارف علمية شديدة التنوع. إن دراسة كهذه هي

(١) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، القاهرة، دار المعارف - ١٩٧٨ م، ص ٢١٣.

(٢) نفسه ص ١٤٤.

(٣) نفسه ص ١٤٤.

دراسة انسكلوبيدية تقع على عاتق تخصصات عدة. وسندرك كلما تقدمنا في عرض المسائل المثارة تنوع المعارف العلمية اللازمة لفهم معنى بعض آيات القرآن"[1].

من أجل ذلك يقول القرآن الكريم مؤكداً هذه الثنائية المدهشة في الخطاب القرآني: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ ﴾(سورة يونس:٣٩) ويقول متحدثاً عن المستقبل: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(سورة فصلت:٥٣).

والنورسي وهو يتعامل مع جماليات القرآن ويتحدث عن خطابه، ويحلل عناصر هذا الخطاب ومستوياته، يقول أشياء كثيرة تؤكد هذا الاستنتاج وتضيئه في الوقت نفسه.

بالنسبة لعناصر الخطاب، أو أطرافه، يؤكد النورسي على أن القرآن الكريم لا يمكن أن يقاس بأي كلام آخر، إذ أن منابع علو طبقة الكلام، وقوته، وحسنه، وجماله، أربعة: الأول: المتكلم، الثاني: المخاطب، الثالث: المقصد، الرابع: المقام. وليس المقام وحده كما ضل فيه الأدباء. فلابد من أن تنظر في الكلام إلى: من قال؟ ولمن قال؟ ولم قال؟ وفيم قال؟ ولا تقف عند الكلام وحده وتنظر إليه.

ولما كان الكلام يستمد قوته وجماله من هذه المنابع الأربعة، فبإنعام النظر في منابع القرآن تدرك درجة بلاغته وحسنها وسموها وعلوها[2].

---

(١) نفسه ص ١٤٦.

(٢) الكلمات ص ٥٠٠.

إن النورسي يتحرك ها هنا باتجاه مضاد للبنيوية التي تتمركز عند النص، وتسعى إلى فك الارتباط بينه وبين طرفيه الآخرين: المبدع والمتلقي. وبقدر ما قدمت البنيوية من خدمة للجهد النقدي في مقاربة النص والحكم عليه من خلال بنيته الداخلية، بقدر ما ضيعت على نفسها فرصة التقويم الأكثر موضوعية ودقة من خلال متابعة الأطراف الأخرى للمعطى الأدبي.

ومن يدري فلعل هذا، فضلاً عن عوامل كثيرة أخرى، تتعلق بالدور التقني الصرف للبنيوية، أو بخلفياتها الابستمولوجية، ما جعل بعض روادها أنفسهم (من مثل رولان بارت وتودوروف) ينفضون أيديهم منها ويتحولون إلى مسارات جديدة.

مهما يكن من أمر فإن النورسي، وهو يتعامل مع النص القرآني، يردنا إلى الحق، ويقف بعض الوقت عند الحد الأساسي للمعادلة الإبداعية كلها: المنشئ، أو المبدع، أو المتكلم. ويرى أن الكلام " يستمد القوة من المتكلم، فإذا كان الكلام أمراً ونهياً يتضمن إرادة المتكلم وقدرته حسب درجته، وعند ذاك يكون الكلام مؤثراً نافذاً يسري سريان الكهرباء من دون إعاقة ومقاومة، وتتضاعف قوة الكلام وعلوه حسب تلك النسبة.

ويضرب لنا – كعادته – جملة من الاستشهادات، فمثلاً: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾(سورة هود:٤٤) و ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾(سورة فصلت:١١)"فانظر إلى قوة وعلو هذه الأوامر الحقيقية النافذة التي تتضمن القوة والإرادة. ثم أنظر إلى كلام إنسان وأمره الجمادات الشبيه بهذيان المحموم: اسكني يا ارض وانشقي يا سماء وقومي أيتها القيامة! فهل يمكن مقايسة هذا الكلام مع الأمرين

النافذين السابقين؟ ثم أين الأوامر الناشئة من فضول الإنسان والنابعة من رغباته والمتولدة من أمانيه، وأين الأوامر الصادرة ممن هو متصف بالآمرية الحقة يأمر وهو مهيمن على عمله؟

" نعم ! أين أمر أمير عظيم مطاع نافذ الكلام يأمر جنوده بـ: تقدم، وأين هذا الأمر إذا صدر من جندي بسيط لا يبالي به ؟ فهذان الأمران وإن كانا صورة واحدة إلا أن بينهما معنى بوناً شاسعاً، كما بين القائد العام والجندي"[1].

ومثلاً: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(سورة يس:٨٢) و ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾(سورة البقرة:٣٤) " انظر إلى قوة وعلو الأمرين في هاتين الآيتين. ثم أنظر إلى كلام البشر من قبيل الأمر. ألا تكون النسبة بينهما كضوء اليراع أمام نور الشمس الساطعة؟ نعم ! أين تصوير عامل يمارس عمله، وبيان صانع وهو يصنع، وكلام محسن في آن إحسانه، كل يصور أفاعيله، ويطابق فعله قوله، أي يقول: انظروا فقد فعلت كذا وكذا، أفعل هذا لذاك، وهذا يكون كذا وذاك كذا.. وهكذا يبين فعله للعين والأذن معاً.

"فمثلاً: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ. وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ. وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ. وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ. رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾(سورة ق:٦-١١). أين هذا التصوير الذي يتلألأ كالنجم

(١) الكلمات ص ٥٠١.

في برج هذه السورة في سماء القرآن كأنه ثمار الجنة؟ وقد ذكر كثيراً من الدلائل ضمن هذه الأفعال مع انتظام البلاغة وأثبت الحشر الذي هو نتيجتها بتعبير ﴿كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ ليلزم به الذين ينكرون الحشر في مستهل السورة. فأين هذا وأين كلام الناس على وجه الفضول عن أفعال لا تمسهم إلا قليلاً ؟ فلا تكون نسبته إلا كنسبة صورة الزهرة إلى الزهرة الحقيقية التي تنبض بالحياة.."[1].

وهكذا، وكما يؤكد النورسي في مكان آخر، اكتسب الخطاب القرآني "الصفة الكلية والسعة المطلقة والرفعة السامية والإحاطة الشاملة للمتكلم الأزلي سبحانه"[2].

ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد، فهناك أطراف أخرى في الظاهرة القرآنية، يقف في قمتها، بعد المتكلم الأزلي الذي هو الله سبحانه، النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) الذي أنزل عليه هذا الكتاب، والممثل للنوع البشري والمخاطب باسم الإنسانية قاطبة، بل باسم الكائنات جميعاً. أما المخاطب فهو ذو فضاء (أو مقام كما يسميه النورسي) واسع فسيح يمضي إلى طبقات البشرية كافة وإلى سائر العصور. هذا إلى ما ينطوي عليه الخطاب القرآني من بيانٍ شافٍ لقوانين الله سبحانه المتعلقة بالدنيا والآخرة، بالأرض والسماء، بالأزل والأبد، وهي تشمل أمور المخلوقات كافة[3]. "إن الأزمنة الغابرة والعصور المندثرة التي هي في نظر الغافلين الضالين وادٍ من عدم

---

(١) الكلمات ص ٥٠١ – ٥٠٢.

(٢) نفسه ص ٥٢٦.

(٣) نفسه ص ٥٢٦.

سحيق موحش رهيب، ومقبرة مندرسة أليمة كئيبة، يعرضها صحيفة حية تطفح عبراً ودروساً، وعالماً عجيباً ينبض بالحياة ويتدفق بالحيوية من أقصاه إلى أقصاه، ومملكة ربانية ترتبط معنا بوشائج وأواصر، فيبينها - بإعجازه البديع- واضحة جليلة كأنها مشهودة تعرض أمامنا على شاشة، فتارة يأتي بتلك العصور ماثلة شاخصة أمامنا، وتارة يأخذنا إلى تلك العصور، ويبين بالإعجاز نفسه" الكون " الذي يراه الغافلون فضاءً موحشاً بلا نهاية، وجمادات مضطربة بلا روح تتدحرج في دوامة الفراق والآلام، يبينه القرآن: كتاباً بليغاً كتبه الأحد الصمد، ومدينة منسقة عمرها الرحمن الرحيم، ومعرضاً بديعاً أقامه الرب الكريم لإشهار مصنوعاته. فيبعث بهذا البيان حياة في تلك الجمادات، ويجعل بعضها يسعى لإمداد الآخر، وكل جزء يغيث الآخر ويعينه، كأنه يحاوره محاورة ودية صميمة، فكل شيء مسخر وكل شيء أنيط به وظيفة وواجب. وهكذا يلقي القرآن دروس الحكمة الحقيقية والعلم المنور إلى الأنس والجن والملائكة كافة. فلا ريب أن هذا القرآن العظيم - الذي له هذا الإعجاز في البيان- قمين بأن يحوز خواص راقية عالية وميزات مقدسة سامية"[1].

وهذا ينقلنا إلى مستويات الخطاب القرآني التي وقف النورسي عندها طويلاً: " فما دام القرآن الكريم خطاباً أزلياً يخاطب به الله سبحانه مختلف طبقات البشرية المصطفة خلف العصور، ويرشدهم جميعاً، فلابد أنه يدرج معاني عدة لتلائم مختلف الأفهام"[2] إنه " يخاطب كل طبقة من طبقات البشر

---

(١) نفسه ص ٥٢٧.

(٢) نفسه ص ٤٥٦.

في كل عصر من العصور، وكأنه متوجه توجهاً خاصاً إلى تلك الطبقة بالذات. إذ لما كان القرآن يدعو جميع بني آدم بطوائفهم كافة إلى الإيمان الذي هو أسمى العلوم وأدقها، وإلى معرفة الله التي هي أوسع العلوم وأنورها، وإلى الأحكام الإسلامية التي هي أهم المعارف وأكثرها تنوعاً، فمن الألزم إذن أن يكون الدرس الذي يلقيه على تلك الطوائف من الناس، درساً يوائم فهم كل منها. والحال أن الدرس واحد، وليس مختلفاً، فلابد إذن من وجود طبقات من الفهم في الدرس نفسه، فكل طائفة من الناس - حسب درجاتها - تأخذ حظها من الدرس من مشهد من مشاهد القرآن"(١).

وهو يضرب لذلك عدداً من الأمثلة نكتفي بالإحالة إليها(٢). ولا ينسى أن يشير إلى "الألفاظ" التي صاغت الخطاب القرآني ذا الطبقات والأدوار: "لقد وضعت وضعاً بحيث أن لكل كلام، بل لكل كلمة، بل لكل حرف، بل حتى لسكون أحياناً، وجوها كثيرة جداً، تمنح كل مخاطب حظه ونصيبه من أبواب مختلفة.. فلكل آية ظهر وبطن وحد ومطلع، ولكل شجون وغصون وفنون"(٣). ويضرب لذلك عدداً من الأمثلة نكتفي بالإحالة إليها(٤).

ولكون الخطاب القرآني أزلياً يخاطب جميع طبقات البشر في جميع العصور خطاباً مباشراً فإنه " حافظ على شبابيته وفتوته حتى كأنه ينزل في كل عصر نضراً فتياً.. إن آثار البشر وقوانينه تشيب وتهرم مثله، وتتغير وتتبدل،

---

(١) نفسه ص ٤٧٨.
(٢) انظر المرجع نفسه ص ٤٧٨ - ٤٨٠.
(٣) نفسه ص ٤٥١.
(٤) انظر المرجع نفسه ص ٤٥٢ - ٤٥٧.

إلا أن أحكام **القرآن** وقوانينه لها من الثبات والرسوخ بحيث تظهر متانتها أكثر كلما مرت العصور"[1].

صحيح أن الحديث ينصب هنا على " الموضوع " القرآني، ولكن هذا ما كان بمقدوره أن يتجاوز تحديات الزمان والمكان، ويتعامل مع متغيرات البيئات والجماعات والثقافات، لولا تساند "الأسلوب" معه، وتمكينه من أداء مهمته المدهشة هذه: " لقد أظهر القرآن الكريم من الطراوة والفتوة والنضارة والجدة بحيث يحتفظ بها وكأنه قد نزل الآن، رغم مرور أربعة عشر قرناً من الزمان عليه، ورغم تيسر الحصول عليه للجميع. فكل عصر قد تلقاه شباباً نضراً وكأنه يخاطبه. وكل طائفة علمية مع أنهم يجدونه في متناول أيديهم وينهلون منه كل حين ويقتفون أثر أسلوب بيانه، يرونه محافظاً دائماً على الجدة نفسها في أسلوبه، والفتوة عينها في طرز بيانه"[2].

وما دمنا بصدد مستويات أو طبقات الخطاب القرآني، فلابد من الإشارة إلى تعليل النورسي لاختلاف السور المكية عن المدنية من حيث البلاغة، فهو يرى "أن الصف الأول من المخاطبين والمعارضين في مكة كانوا مشركي قريش وهم أميون لا كتاب لهم، فاقتضت البلاغة أسلوباً عالياً قوياً، وإجمالاً معجزاً مقنعاً، وتكراراً يستلزمه التثبيت في الإفهام، لذا بحثت أغلب السور المكية أركان الإيمان ومراتب التوحيد بأسلوب في غاية القوة والعلو وبإيجاز في غاية الإعجاز، وكررت الإيمان بالله والمبدأ والمعاد والآخرة كثيراً، بل قد عبرت عن تلك الأركان الإيمانية في كل صحيفة أو آية، أو في جملة واحدة، أو

(١) نفسه ص ٤٧١.

(٢) نفسه ص ٥٢٠.

كلمة واحدة، بل ربما عبرت عنها في حرف واحد، في تقديم وتأخير، في تعريف وتنكير، في حذف وذكر. فأثبتت أركان الإيمان في أمثال تلك الحالات والهيئات البلاغية إثباتاً جعل علماء البلاغة وأئمتها يقفون حيارى مبهوتين أمام هذا الأسلوب المعجز.

"أما الآيات المدنية وسورها فالصف الأول من مخاطبيها ومعارضيها كانوا من اليهود والنصارى وهم أهل كتاب مؤمنون بالله، فاقتضت قواعد البلاغة وأساليب الإرشاد وأسس التبليغ أن يكون الخطاب الموجه لأهل الكتاب مطابقاً لواقع حالهم، فجاء بأسلوب سهل واضح سلس، مع بيان وتوضيح في الجزئيات - دون الأصول والأركان الإيمانية - لأن تلك الجزئيات هي منشأ الأحكام الفرعية والقوانين الكلية ومدار الاختلافات في الشرائع والأحكام. لذا فغالباً ما نجد الآيات المدنية واضحة سلسة بأسلوب بياني معجز خاص بالقرآن الكريم.. وهكذا ترى أن هناك نمطاً من جزالة معجزة ساطعة في الآيات المدنية هو غير بلاغة الآيات المكية، حسب اختلاف المقام وتنوع مقاصد الإرشاد والتبليغ"(١).

ولا ينسى النورسي أن يشير إلى أن قدرة الخطاب القرآني على التوجه إلى افهام العوام البسيطة، وهم معظم المخاطبين، تنطوي في الوقت نفسه على "حصة وافرة لأعلى المستويات الفكرية ولأرقى الطبقات العقلية، فلا يهب لمخاطبيه شيئاً من إرشاداته وحدها، ولا يخصهم بعبرة من حكاية تاريخية

---

(١) نفسه ص ٥٣٠ - ٥٣٢.

فقط، بل يخاطب مع ذلك طبقة في كل عصر - لكونها فرداً من أفراد دستور كلي - خطاباً ندياً طرياً جديداً كأنه الآن ينزل عليهم"[1].

كما لا ينسى أن يشير إلى أن إعجاز القرآن الجميل يظهر أيضاً " في أسلوب إرشاده البليغ، حيث راعى أحسن الرعاية أمية مبلغه الكريم (صلى الله عليه وسلم) باحتفاظه التام على سلاسته الفطرية، فهو أجل من أن يدنو منه تكلف أو تصنع أو رياء - مهما كان نوعه - فجاء أسلوبه مستساغاً لدى العوام الذين هم أكثرية المخاطبين ملاطفاً بساطة أذهانهم بتنزلاته الكلامية القريبة من أفهاهم، باسطاً أمامهم صحائف ظاهرة ظهوراً بديهياً كالسماوات والأرض، موجهاً الأنظار إلى معجزات القدرة الإلهية وسطور حكمته البالغة المضمرتين تحت العاديات من الأمور والأشياء"[2].

ويخلص إلى القول بأن " في كل حرف منه عشر حسنات، بل ألف حسنة أحياناً، بل ألوف الحسنات في أحيان أخرى، وعجز الجن والإنس عن الإتيان بمثله ولو اجتمعوا له، ومخاطبته بني آدم جميعهم، بل الكائنات برمتها مخاطبة بليغة حكيمة، وحرص الملايين من الناس في كل عصر على حفظه عن ظهر قلب بشوق ومتعة، وعدم السأم من تلاوته الكثيرة رغم تكراراته، واستقراره التام في أذهان الصغار اللطيفة البسيطة مع كثرة ما فيه من جمل ومواضع تلتبس عليهم، وتلذذ المرضى والمحتضرين - الذين يتألمون حتى من أدنى كلام - بسماعه وجريانه في أسماعهم عذباً طيباً، وغيرها من الخواص السامية

(١) نفسه ص ٥٢٦.

(٢) نفسه ص ٥٢٨.

والمزايا المقدسة التي يحوزها القرآن الكريم، فيمنح قراءه وتلاميذه أنواعاً من سعادة الدارين"[1].

حقاً إن الخطاب القرآني لهو واحد من أكثر وجوه هذا الكتاب فرادة وإعجازاً فنحن نرى قبالة أعيننا كيف يحقق هذا الخطاب كسبه للزنجي البسيط في أعماق أفريقيا وللغربي المتفوق في ساحات أوربا وأمريكا.

يكفي أن نتذكر عقولاً (كروجيه كارودي) (ومراد هوفمان) انتمت إلى هذا الدين، ونتذكر معهما حشود الزنوج الأفارقة الذين يتدفقون على الإسلام ويعلنون انتماءهم إليه، يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة .. لكي نعرف قدرة هذا الخطاب، رغم حاجز اللغة أحياناً، على التأثير في الآخر ومنحه القناعة بأحقية هذا الدين وجدوى الانتماء إليه.

يكفي أيضاً أن نتذكر كيف أنه في عالم الأدب، هنالك قصص وروايات للصغار وأخرى للكبار، ولن يكون بمقدور إحداهما أن تحقق المتعة والانسجام والفائدة للفئتين معاً. لكن هذا الكتاب المعجز يخاطبهما معاً فيمنحهما الكثير.

قد يقال أن التوراة والإنجيل، أو أي كتاب ديني، يقرأه – أيضاً – الصغار والكبار أسوة بكتاب الله..

إلا أن الفارق يظل كبيراً يصعب عبوره.. إن الكتب المذكورة أصبحت بعد تحريفها وحقنها بالخرافات والأضاليل، منظومة من الأكاذيب، وجسداً

(١) نفسه ص ٥٢٧ – ٥٢٨.

بغير روح.. وقراءتها أيام الآحاد أو غيرها لا تعدو أن تكون مجرد تقليد ميت لا حياة فيه، ولا يمنح عقول قارئيه أو أرواحهم شيئاً ذا غناء.

أما الخطاب القرآني المعجز فإنه يدفع العقل إلى أقصى حدود الاحتمال وهو يضع قبالته معرفة ليست كالمعارف، ويسيح به في آفاق الحياة والوجود والعالم والطبيعة والكون والمصير..

أما في دائرة الروح والوجدان فإنه يفعل الأفاعيل التي تعجز الكلمات عن التعبير عنها.. وفوق هذا وذاك فإنه يستجيب لطموحات الأميين والبسطاء والصغار فيقرأونه بشغف، كل بما يسره الله له من قدرة على التذوق والفهم والتصور والإدراك.

وتجيء الأسلوبيات القرآنية المدهشة فتمنح هذا كله القدرة على التحقق وتقدم للناس كافة، على اختلاف الأجيال والأذواق والمدارك والبيئات والأعمار، رحيقاً من عسل مصفى كان وسيظل البوابة الكبرى التي يجتازها الداخلون إلى حمى هذا الدين.

خاتمة

إن النورسي وهو يتحدث عن البعد الجمالي في أسلوبيات القرآن الكـريم ويحاول أن يجزّيء المعطى الجمالي بالإحالة على مصطلحات البلاغيين كالنظم والمعنى والأسلوب واللفظ والبيان والتكرار.. إلى آخـره.. لم يقـصد البتـة أن يحصر هذه المعطيات في دوائر تلك الحلقات المحددة في الدراسات البلاغيـة، ولا أن يخصص للموضوع عدداً من المقاطع والمباحث والرسائل والكلـمات، ثم يمضي لمعالجة الموضوعات الأخرى بعيداً عن أطرها أو نبضها الجمالي.

ذلك أن الإحساس بالجمال، ورؤيته، والتفاعـل معـه، وتلقيـه، وتحليـل أبعاده وعناصره، سواء في كتاب الكون المنظور، أو الكتـاب المقـروء، يهـيمن على كلمات النورسي ورسائله من بدئها حتى منتهاها. ومن ثم فإن مـا يقولـه النورسي ها هنا عن جماليات الأسلوب القرآني، قـد ينتـشر بالكلمـة القرآنيـة نفسها، جنباً إلى جنب مع الإبداع الإلهي في الكون والعالم، عبر الرسائل المائـة والثلاثين جميعاً.

ولكنهـا ضرورات الدراسـة -كـما يقولـون- تقتـضي -أحيانـاً- مـن الطرفين: المفكر ودارسيه، تحجيم القيم والمعاني من أجل السيطرة عليها.

ويبقى كتاب الله، قبل هذا وبعده، ينطوي على ما هو أغلى وأعلى وأكثـر إثارة للدهشة والإجلال والتقدير: إنه الجلال الإلهي الـذي تعجـز الكلـمات

عن تقريب أبعاده للمتلقي، لأنه كلام الله جل في علاه والذي يمكن للمرء أن يلمسه ويحّسه ويتفاعل معه وهو يقرأ في كتاب الله منذ أول كلمة فيه حتى آخر حرف، لكنه لن يكون بمقدوره أن يصفه، أو يحدده، أو يكتب عنه بما يوازي تماماً حجمه أو تأثيره الحقيقي.

هذا الجلال القرآني الذي ينبض بالجمال.. بالتناظر والتناسب، والتوزيع المذهل للأبعاد والمساحات.. هذا التدفق الموصول الذي لا يكف عن الخفقان لحظة واحدة ولا عن الإيماض لحظة واحدة ولا عن الوعد بالعجيب المدهش لحظة واحدة..

أليس هو قبل هذا، ومعه وبعده، من عطاء الله الجميل الذي يحب الجمال والذي لا تنفد كلماته، والذي إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون؟!

المحتويات

تقديم ٥

الفصل الأول: الأسلوب والتقنيات ٧

الفصل الثاني: الطبيعة والعالم والكون ٣٥

الفصل الثالث: دنيا الأحياء ٥٩

الفصل الرابع: الإنسان ٩٣

الفصل الخامس: عالم الغيب ١٢٥

الفصل السادس: كتاب الله ١٦٣

خاتمة ٢٠١

المحتويات ٢٠٣

بدء من صيغ الخطاب التي تعتمد (الكلمة) وتفجر قدراتها البلاغية، وانتهاءً بأبعد آفاق المعطى الجمالي متمثلاً بالتناسق الكوني:

في بنية الكون نفسه وفي كتاب الله المعجز الذي يعكس بتكوينه اللغوي المدهش، حالة جمالية متفردة، بحثت وقرئت آلاف لمرات، فلم تخلق على كثرة الرد..

وها هو ذا (النورسي) يجيء، في الموعد المضروب من عصر المادية الطاغي، لكي ضيف ما يهز الوجدان بصدد الإعجاز الجمالي للقرآن، والرسالة وكلمات الله التي ما لها من نفاد..

وابداعيته الباهرة في الكون والعالم والوجود والطبيعة والحياة والإنسان والأشياء والذرات والجزيئات.

المؤلف